إمارة آل شبيب في شرق جزيرة العرب

٩٣١ - ٩٦٠هـ / ١٥٢٥ - ١٥٥٣م

د.عبداللطيف الناصر الحميدان
جامعة الملك سعود قسم التاريخ
الرياض

الرياض
١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

المحتويات

تمهيد

تمهيد

حظي تاريخ الخليج العربي بقدر كبير من الاهتمام، على النطاقين الرسمي والشخصي، خلال العقود الأخيرة من قرننا الحالي، واستقطب خلاله أعداداً من الباحثين والدارسين من مختلف الأقطار وشتى الأجناس، فتمخض عن ذلك لقاءات وإصدارات ودراسات . ومع ذلك فإن تلك المجهودات التي بذلت قَصُرت عن بلوغ أهدافها في إشباع نهم المتشوق وإرواء ظمأ المتعطش لمعرفة تاريخ الخليج بكل أبعاده ونواحيه. ولعلّ مردّ ذلك القصور هو غلبة المنتحلين على الساحة وانكفاء القدرات العلمية المؤهلة والكفاءات المميزة .

وما دمنا في سياق الحديث عن الجهود المبذولة للكشف عن الأوضاع المختلفة التي شهدها تاريخ الخليج العربي، والدور الذي احتله في مجرى التاريخ العام، فحريٌ بنا أن نثير قدرا من الانتباه نحو منطقة شمال الخليج، وتحديداً شرق جزيرة العرب ، والمعروفة حتى عصور متأخرة بـ "بلاد البحرين". إذ لم تنل تلك المنطقة قدراً مناسباً من الاهتمام، مما أبقى بعضاً من حقبها يلفها الغموض، فساهم ذلك في إبعاد الدارسين عن ولوجها . وإذا ما أردنا تحديد إحدى تلك الحقب، فأجدر بأن تكون تلك التي أعقبت حكم آل جبر [١] ، والتي وقف عندها مؤرخَيّ نجد، ابن لعبون والفاخري، موقف الحائرين. لينتهيا أخيراً إلى القول بأن حكم آل جبر كان هو السائد في شرق جزيرة العرب حتى مجيء الروم - العثمانيون - عند مطلع القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) [٢] .

وبالرغم من الأخطاء التاريخية العديدة في تصورات ابن لعبون والفاخري، فإن الدارسين المحدثين الذين مروا بهذه الفترة حذوا حذوهم ورددواأقوالهم دون أدنى تمحيص أو تدقيق، بل انبرى بعضهم لدعم تلك الأخطاء بأسانيد مهزوزة[٣] .

وعلى أي حال، فإن تشخيص السلبيات وإبراز العيوب هو أسهل بكثير من تقويمها وبنائها بصورة صحيحة، ولكي لانُتَّهم بسلوك أهون الطريقين، ارتأينا ولوج هذه الفترة

فيها بإمكاناتنا المتواضعة ومادتنا الشحيحة.

والواقع أن إهتمامنا بهذه الحقبة يعود لسنواتٍ خلت، حينما وقع بصرنا ونحن نجول بين الكتب، على نصٍ تاريخيٍ ثمين أورده الشيخ محمد العبدالقادر، في كتابه الذي يدور حول تاريخ الإحساء، إقتبسه من كتاب الجُزيري، والذي كان مايزال مخطوطاً حينذاك. وكان ذلكم النص الفريد يتضمن معلومات حول نهاية حكم الجبور في الأحساء والقطيف عند حدود سنة ٩٣١ للهجرة، ١٥٢٥م[٤] وعن دور الشيخ راشد بن مغامس «الفضلي» في ذلك. الأمر الذي حفزنا ذلك على التحري والتقصي عن مضامين ذلك النص وأبعاده، وعن الشيخ راشد نفسه وعن أسرته وقبيلته. وبعد جهدٍ جهيد وطول إنتظار تجمَّعت لدينا شتاتاً من المادة التي تصلح أن تتخذ متكأً لدراسة تلك الحقبة، وأن يُشاد عليها بناءاً تاريخياً، بعد سد ثغراتها ونواقصها عند بعض نقاط التمفصل ما بين أحداثها، وذلك بالتكهّن أحياناً. فكان أن تم بعد ذلك تدبيج بحثٍ بعنوان : دولة آل فضل في الأحساء والقطيف، والذي نُشر في مصر[٥]، إلاّ أنه جاء مملوءاً بالأخطاء والنواقص، إذ لم تُتح لكاتبه فرصة مراجعة تجاربه الطباعية الأولى، الأمر الذي آثار أسف كاتبه، ودعاه الى التفكير في إعادة نشره منقحاً. إلا أن إتساع مادته وموارده أدى إلى بروز فكرة إخراجه في كتاب مستقل بعد أن ضُمَّت إليه نصوص وصور لوثائق برتغالية وهرموزيةٍ نادرة. وبهذا يمكن أن يصل هذا العمل إلى أكبر عدد من المتتبعين لتاريخ المنطقة، ويمنع التسلط على محتواه وسرقة مادته، بصورة أو أخرى، كما حدث لبحوث المؤلف السابقة.

على أن مثل هذا الكتاب، كان لابدَّ أن يحتوي على صفحاتٍ مملّةٍ وحذلقاتٍ أحياناً، إلا أن هدفه المركزي وهاجسه الرئيس يبقى بارزاً في الكشف عن فترة غامضة ورفع الغطاء السميك عنها وإضاءة بعض دروبها. مما سوف يعطي هذا العمل، دون شك، التفرد، ويمهد الطريق لرؤيةٍ أفضل، ليس لتلك الفترة فحسب، بل ولسابقتها ولاحقت أيضاً، من تاريخ

أيضاً، من تاريخ شرق جزيرة العرب. بل قد يتجاوز حدودها ليشمل مناطق ترتبط بها وتتصل معها، مثل نجد والبصرة والبحرين هرموز. إذ أن التحولات والوقائع لا يمكن فصل بعضها عن بعض، وعن سياقها التاريخي، كما لايمكن فهمها بعمق ووضوح إلا بتعقب صيرورتها التاريخية.

على أن الباحث سيعمد للعناية بأمرين ، أولاهما : الإلمام بإيجاز شديد بقبيلة المنتفق ثم ظهورها على مسرح الأحداث، وتأصيل دور شيوخها في هذا النطاق .

وثانيهما : وضع تاريخ المنطقة ضمن السياق العام للتطورات الاقليمية والعالمية التي زخر بها القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد . وإخراجها من حيزها المحلي البحت، لئلا تظهر وكأنّها بمعزل عما يجري حولها من وقائع وأحداث .

وأخيراً ، لابد من القول ، أن المؤلف أكثر الناس تطلعا لأن يحقق جهده الهدف الذي توخاه وأن يستقبل بالرضى من القراء، وليتلمسوا له العذر إن زل قلمه أو أغفل أمراً يرون أنه ذا شأن.

على أن واجب الاعتراف بالجميل يقتضي إسداء الشكر الجزيل والثناء الوافر لمن ساعد المؤلف بأية صورة كانت، وهم كثُر، بحيث لايسع المجال لذكرهم جميعاً. لذا نكتفي بذكر البعض منهم. فنخص بالشكر إدارة الارشيف الوطني البرتغالي والمكتبة المركزية في لشبونة، و العاملون في دار الوثائق العثمانية باسطنبول، وكذلك الدكتور أحمد بو شرب الذي كانت لأبحاثه أثر في لفت انتباه المؤلف لبعض الوثائق، إضافة إلى البروفسور أسعد نظامي لترجمته قسماً من النصوص الفارسية، والدكتور فضل العمّاري والدكتور عبدالله بن ادريس والدكتور عمر العقيلي الذين لفتوا انتباهي إلى إشارات تتعلق بهذا البحث، والاستاذ محمد بري مترجم السفارة البرتغالية والملم بالعديد من اللغات الاوربية .

كما لن ننسى طالبنا المجد محمد موسى القريني، الذي كان متشوقاً على الدوام لتلبية أية مساعدة تطلب منه، وجهود الناسخ عيسى الهلال الذي بذل جهداً في اخراج الكتاب

بالصورة التي كنا نتمنّاها.

وأخيراً وليس آخراً، أسدي الشكر لجامعة الملك سعود والقائمين على مكتبتها.

والله أسأل العون والسداد ..

المؤلف

الرياض في رمضان ١٤١٧هـ،
الموافق كانون الثاني ١٩٩٧م.

- الحواشي والتعليقات

١- راجع حول الجبور، عبد اللطيف الناصر الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية، **مجلة كلية الآداب** بجامعة البصرة (١٩٨١)، ١٦/٣١-٦٣.

٢- راجع، ابن لعبون(ت١٢٥٥هـ/١٨٣٩م) (١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م)، **تاريخ حمد بن لعبون**، (القاهرة، ط٢، ١٤٠٨)، ٤٠ ؛ الفاخري (ت ١٢٧٧ هـ / ١٨٨٠م)، **الأخبار النجدية**، تحقيق عبد الله الشبل، (الرياض، ب.ت)، ٦٤ ؛ كذلك راجع، ابن بشر، عثمان، **عنوان المجد في تاريخ نجد**، تحقيق عبد الرحمن آل الشيخ، الرياض،ط٤، ج٢، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ط١. ٣٠٥

٣- أبو عبد الرحمن بن عقيل، **أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء**، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م،١/٢٤٢-٢٩١.

٤- **تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد**، الرياض، ط٢، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م، ١٢١. وكذلك راجع نص الجزيري في **ملحق هذا الكتاب** ، الصفحة ١٣٠.

٥ - **حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس** - (١٩٩٤- ١٩٩٥ م)، المجلد ٢٣، جـ٤، ص ٨٤٣ - ٩٤٣.

نشوء قبيلة المنتفق ومشيختها

- نشأة المنتفق وزعامتها
- قيام إمارة آل شبيب
- التغيرات الاقليمية وإمارة آل شبيب
- الحواشي والتعليقات

- نشأة المنتفق وزعامتها

يقتضي قبل الانغمار في خضمّ الاحداث، أن يتم إعطاء لمحة سريعة عما قيل حول الاوضاع التي أدت إلى نشوء المنتفق والأصول القبلية التي كونتها وعن ظهور بيت الزعامة فيها حتى قيام دولتهم دون الدخول في مناقشة ذلك تحاشياً للإطالة فيما لايمتّ بصلة وثيقة بموضوعنا .

على أنه يجدر التنبيه بادىء ذي بدء، على أن الحديث عن المنتفق لايقصد به هنا تلك القبيلة التي ظهرت في بادية البصرة خلال القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد، وتغلغلت في أريافها وذاع صيتها طوال القرون التي تلت ذلك . إذ أن تلك القبيلة كانت في الواقع قد تمزقت وتشتت، وانطمس ذكرها بعد أن تعرضت للتقتيل والمطاردة على يد السلطة العباسية في حدود سنة ٦١٦ - ٦١٧ هـ / ١٢٢٠م والتي لم تستثن حتى زعمائها بني معروف [(١)] .

فحديثنا إذاً سينصب على قبيلة أخرى حملت الاسم نفسه، ومارست نشاطها في ذات المنطقة، من دون أن تمت بصلة لسابقتها في النسب، والوشائج القبلية أو في البيت الذي تولى زعامتها . لذا فالربط بين هذه القبيلة المتأخرة وسابقتها المتقدمة لمجرد التشابه بين اسميهما، ماهو إلا خطأ تاريخي يقع الكثير فيه ولايزال .

غير أن المعلومات المتعلقة بنشوء قبيلة المنتفق الجديدة وبروز اسمها وعن أصول زعمائها وكيفية ارتقائهم سلم القيادة، ماهي إلا معلومات مختزلة إلى حد كبير، ولا تعدو أن تكون تراث قبلي تداولته الشفاه واحتفظت به الذاكرة الجماعية لفترة طويلة . فامتزجت حقائقه الغائبة بالأساطير والحكايات ضمن نسقٍ ذهني لعصور التخلف الثقافي . وكانت العناية فيه منصبة أساساً في التراث المدون منه على أسرة السعدون التي انتهت إليها

زعامة المنتفق قبل حوالي ثلاثة قرون ففطت في شهرتها على من سواها من الأسر التي سبقتها في تولي زعامة تلك القبيلة .

وخلاصة تلك الروايات المدونة، أن أحد أشراف الحجاز - الذي لم تذكر إسمه - نزح منه واستقر بين ظهراني قبيلة تعرف ببني مالك (البو مالك) فتزوج فيهم وحظي بينهم بمكانة بارزة واحترام كبير، خاصة بعد نجاحه في تهدئة النزاع القائم منذ فترة من الزمن بين قبيلة (البومالك) وقبيلة الأجود (الأجاودة) [٢] من غزية [٣]. ثم تضيف تلك الروايات أن زعيماً من صلب الشريف النازح يدعى شبيباً برز اسمه وذاع صيته، حينما استطاع انتشال بني مالك من ضعفهم وتشرذمهم ودحر بهم خصومهم آل أجود بعد تجدد النزاع بينهما . والأهم من ذلك أن الأخيرين وجدا نفسيهما في وضعٍ اضطرهما إلى الإذعان والانضواء تحت زعامة شبيب، والتي هي بالطبع زعامة معنوية أكثر من كونها سلطة قهرية . فمؤهلات شبيب الشخصية وحسبه ونسبه أهلته لتلك المكانة، وتحقيق إنجاز تاريخي، وذلك ببعث كيان قبلي جديد ضم بين جناحيه بني مالك وآل أجود وعرف باسم « المتفق » من الاتفاق، والذي مالبث أن شاع فيما بعد باسم « المنتفق» أو « المنتفج » [٤] بلهجة العامة في العراق . ومما يذكر أن هذا الاتفاق اتسع بمرور الوقت ليضم قبائل أخرى، فنتج عن ذلك تجمع قبلي ضخم عرف بـ «اتحاد المنتفق» [٥] .

وفيما يتعلق بالشهرة التي عرفت بها مشيخة القبيلة فهي " بيت المنتفق "، نسبة للقبيلة نفسها، " وآل فضل "، نسبةً للجد الأصل مانع بن شبيب بن فضل [٦] . والذي شيد ملكهم في البصرة في أواخر القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد . كما يطلق عليهم أخيراً " آل شبيب " نسبةً لشبيب بن فضل [٧] الذي يعود إليه الفضل الأول في إنشاء كيان المنتفق الجديد . على أن النسبة الأخيرة هي الأكثر شيوعاً، وتداولاً حيث أخذنا بها في بحثنا، ولاعبرة بأنساب وألقاب البيوتات المتفرعة عنه خاصة، وأنها تنتسب إلى أحد زعماء القبيلة المتأخرين نسبياً [٨] .

ومهما يكن من أمر فإن صعوبة تجسيد ذلك الماضي الذي يكاد أن يكون أسطورياً والاطمئنان لصحة رواياته لا يحول دون محاولة تثمير بعضها والاستفادة منها . إلا أن محاولة تنفيذ مثل تلك الفكرة سوف ينأى بنا بعيداً بعض الشيء عن الهدف من بحثنا هذا، لذا فسوف نتحاشى ذلك حالياً على أن يكون لنا عودة إليه في بحثٍ آخر ملتصقاً بهذه النقطة بصورة أوثق .

- قيام إمارة آل شبيب

لعل المتتبع لتاريخ الشرق الأوسط خلال العصر الوسيط المتأخر يعرف تمام المعرفة ماشهدته تلك المنطقة من اضطرابات سياسية وحروب مدمرة وكوارث طبيعية، وما نتج عنها من مجاعات وخراب اقتصادي، وأن العراق لم يكن مستثنى من هذه الأوضاع، خاصة وأنه قد رزىء بغزوات تيمورلنك المدمرة [٩]، وسلطة المغول الجلائريين الجائرة [١٠] .

والذي يعنينا حصراً هو انعكاس تلك الأوضاع وتأثيرها على أحوال البصرة وعلى قواها القبلية بالذات، حيث نجدها تأخذ بالتضامن، والتوحد تجاه تلك الأخطار المحدقة بها، إضافة إلى محاولة اقتناص الفرصة لتحقيق بعض المكاسب. ويبدو أن تحالفها هذا قد تعزز بعد نجاحها في تحقيق نصرٍ كبير غير متوقع على جيش تيمورلنك حينما غزا البصرة سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٣م [١١] . وبالرغم من أننا لانملك معلومات عن أسماء القبائل التي شاركت في تحقيق النصر الكبير في تلك المعركة التي جذبت الأنظار إليها بصورة واسعة [١٢]، إلا أنه من المؤكد أن قبيلة المنتفق كانت على رأس تلك القبائل وتحت قيادة شيخها مانع بن شبيب بن فضل (الفضلي)، والذي قد يكون هو الآخر حقق في المعركة دوراً بارزاً متميزاً وكسب شهرة واسعة . ولعل نجاحه في تحرير البصرة من سلطة التتر والمغول [١٣] بعد بضع سنوات من هذا الحدث، أي مابين سنتي ٧٩٨ -٨٠١ هـ

(١٣٩٠- ١٣٩٨م)[١٤]، على أرجح تقدير، لدليل على ماذهبنا اليه . إذ تمكن الشيخ مانع بن شبيب من النجاح في حشد العرب حوله بشكل واسع الأمر الذي أهله لإقامة ملك راسخ لبيت المنتفق في البصرة [١٥] . وهذا يعكس بتعبير آخر مدى التلاحم الاجتماعي الذي رافق نشوء المنتفق وعلاقة التبعية وزعامة الرئيس، وسيطرته مما أنتج عنه تكوين عصبة قوية نجحت بعد عدة عقود من إنشائها في إقامة إمارة هي في تركيبها الاجتماعي مزيجاً بين البداوة والتحضر، فكان " انتقالاً من الرئاسة العامة إلى الملك " على حد تعبير العلامة ابن خلدون [١٦] .

وعلى أي حال فإن إمارة آل شبيب هذه التي دامت قرابة ثمانية عقود تقريبا [١٧]، وانتهت بسقوطها على يد المشعشعين في حدود سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م [١٨]، لاتعنينا تفصيل أحوالها في بحثنا هذا، إذ كل ما يعنينا منها يتعلق بالقبائل والجماعات التي نزحت من أطراف نجد وبلاد البحرين . فقد تهيأت لها خلال هذه الفترة فرصة للتغلغل في أرياف البصرة وقصباتها، إضافة إلى بواديها، حيث أخذت الاستقرار فيها، وكان من بينها بالطبع بطون المنتفق . ولعل المسوحات الضرائبية والسكانية التي قام بها العثمانيون عند بدايات النصف الثاني من القرن العاشر / السادس عشر في البصرة من الممكن اتخاذها مصدراً لما ذهبنا إليه . ففي تلك السجلات نجد أن بني مالك وبطونها كانت منتشرة في أرياف تلك الولاية بشكل واسع [١٩] . فكان طبيعياً أن يشكل هذا الامتداد البشري وهذه الدماء الجديدة، دعامة قوية للمنتفق من أجل العودة لحكم البصرة ثانية، والذين انتهت زعامتهم لأبناء مغامس بن صقر بن يحيى والمنحدرين من ذرية الشيخ شبيب بن (الفضلي) وذلك عند نهاية القرن التاسع للهجرة / الخامس عشر للميلاد .

ولعل وفاة محسن بن محمد بن فلاح المشعشعي، سلطان خوزستان والبصرة في حدود سنة ٩٠٥ هـ / ١٥٠٠م، قد أنعش آمال آل شبيب وقوى من عزائم أتباعهم لاسترداد البصرة . فمارسوا ضغوطا متواصلة على ابن عليان الطائي، الحليف القوي

للمشعشعين في منطقة الجزائر شمالي البصرة، والذي كان يتولى باسمهم حكم البصرة أيضاً . لذا فإن ابن عليان مالبث أن هرع في هذا الوقت بالذات إلى الشاه إسماعيل الصفوي (٩٠٧ - ٩٣٠ هـ/ ١٥٠١- ١٥٢٤ م) حين ارتقائه عرش إيران ليعلن خضوعه وتبعيته له [٢٠] . لكن محاولة ابن عليان هذه لم تعزز مركزه طويلا ولم تجديه نفعاً، إذ اضطر أخيراً لتسليم البصرة لأبناء الشيخ مغامس - محمد وراشد - لقاء مبلغ من المال [٢١] .

- التغيرات الإقليمية وإمارة آل شبيب

تمثل فترة وصول آل شبيب إلى السلطة عند مطلع القرن العاشر/ السادس عشر، منعطفاً تاريخياً، ليس للبصرة فحسب، بل ولمنطقة الخليج العربي على اتساعها، حيث تزامن ذلك مع بداية تحولات سياسية عميقة، وتغيرات إقليمية واسعة، يجدر الإلمام ببعض منها بإيجاز شديد .

ففي إيران ظهر الشاه إسماعيل الصفوي ونجح في تأسيس دولة نسبة لأسرته وصبغها بصبغة شيعية، ثم اندفع بعدها نحو التوسع، فتحققت له في هذا المضمار نجاحات كبيرة [٢٢] .

وفي الوقت نفسه كان العثمانيون يتجهون بأنظارهم نحو الشرق، ويتحسبون لتوسع الصفويين وتهديداتهم لأراضيهم، فتصدى له السلطان سليم الأول ياوز (٩١٨ - ٩٢٦ هـ / ١٥١٢ - ١٥٢٠ م) ، وهو المتلبس بفكرة فاتح العالم، فصادمهم بعنف وألحق بهم هزيمة نكراء في جالدران سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤م [٢٣].ثم مالبث سليم أن استدار صوب مماليك مصر والشام، فأذاقهم مر الهزيمة، في كل من «مرج دابق» و«الريدانية» في سنتي ٩٢٢و٩٢٣ هـ/١٥١٦و١٥١٧م على التوالي وليصبح بعدها سيداً بلا منازع في قلب بلادالعرب، وحامي حمى الحرمين الشريفين [٢٤] .

ومن المهم جداً الإشارة أيضاً إلى القوة البرتغالية، التي جاءت عابرة مياه المحيط الأطلسي إلى المحيط الهندي، بسفنها الضخمة، سالكة أسلوب العنف الدموي للهيمنة على التجارة العربية المزدهرة فيه، فأشاعت الذعر والخوف على امتداد شواطئه العربية، وأربكت أوضاعه على الاصعدة كافة [٢٥].

وفي ضوء التصور العام هذا، لما كان يجري في قلب العالم القديم على اتساعه، من تقاطع في المصالح والأهداف بين الكيانات القوية الناهضة، والذي كان يفضي بين حين وآخر إلى الصدام العنيف نجد أن الكيانات الصغيرة ، هنا وهناك، تحاول جاهدة أن تتلمس طريقها وسط تلك الأجواء المقلقة لكي تحافظ على وجودها واستقلالها، بل وقد تحاول جاهدة الاستفادة منها. وكانت الكيانات الخليجية، والمستوطنات الصغيرة هي من بين تلك التي ألمحنا إليها، حيث مواقعها المتحكمة في حركة التجارة للمسافات البعيدة، إضافة إلى احتواء البعض منها على ثروة هامة، مما يثير تنافس القوى الكبيرة حولها .

وكان البرتغاليون، من بين الذين أدركوا سريعاً الأهمية الكبيرة لطريق الخليج العربي في تجارة الهند والدور الذي تلعبه كياناتها العديدة في هذا الصدد، فتعاملوا مع هذا الطريق وكياناته بطريقة مختلفة، نوعاً ما، عن تعاملهم مع طريق البحر الاحمر وكياناته . [٢٦] فحينما دخل «البوكيرك» نائب ملك البرتغال في الهند، (١٥٠٩-١٥١٥م) إلى الخليج العربي سنة ١٥١٥م (٩٢١هـ) وأقام في جزيرة هرموز (جرون) فترة امتدت مايزيد على ستة شهور، مابين آذار (مارس) وتشرين الثاني (نوفمبر)، ووضع خلالها مملكة هرموز [٢٧] تحت الحماية البرتغالية أيضاً، جرت خلال ذلك اتصالات ومراسلات بينه وبين عدد من حكام الخليج، كان من بينهم أبي اسحاق، سلطان ريشهر على ساحل فارس، وابن جبر سلطان البحرين والقطيف والأحساء، ومحمد بن مغامس الفضلي، سلطان البصرة، حيث اتسمت تلك الاتصالات والمراسلات بمشاعر دبلوماسية حارة مع الاستعداد لإقامة صلات من الصداقة الوثيقة. [٢٨]

والذي يبدو أن الاستعداد للتعاون بل والحماس للتقرب من البرتغاليين الذي أبداه كل من سلطان البصرة وسلطان الجبور، لم يكن مرده هو حرصهما على استمرار تجارة بلديهما فحسب، بل خشيتهما أيضاً، من أن تؤدي المفاوضات الدائرة في كل من هرمز وتبريز، بين البوكيرك والشاه إسماعيل إلى نتائج وخيمة على مستقبل بلديهما، خاصة بعد أن عبّر مبعوث الشاه بصورةٍ واضحة لا لبس فيها، عن أطماع سيده في البحرين والقطيف ومطالباً البرتغاليين بدعمها عسكرياً .

على أن موقف البوكيرك، الرافض لتلك الأطماع الصفوية، [٢٩] قد هدأ من روعهم، وأزال بعضاً من مخاوفهم، وإن لم ينهها، فالحصار التجاري الذي فرضه السلطان العثماني سليم على الصفويين [٣٠] جعلهم يتطلعون باستمرار نحو موانىء الخليج للتخفيف من ضغوط ذلك الحصار. [٣١]

وعلى أي حال، فما يهمنا في بحثنا، هو توجيه الانظار نحو إمارة آل شبيب والتي كانت قريبة من دوامة الأحداث المشار إليها آنفاً . فموقع تلك الإمارة عند رأس الخليج العربي وخبرة أمرائها بالمسالك والدروب، وقيادة القوافل وحسن حراستها وتجهيزها، مكنهم من جني فوائد مادية كبيرة، في وقت تزايد فيه الإقبال على موانىء الخليج للحصول على السلع الهندية ، [٣٢] نظراً إلى أن البرتغاليين لم يعمدوا إلى منع السفن من الإبحار فيه ونقل مختلف السلع منه وإليه بما فيها التوابل بعكس سياستهم اتجاه طريق البحر الاحمر حيث فرضوا حصاراً عليه مما أفضى إلى نقص حاد في السـلع الهندية في موانئه. [٣٣] بل والأكثر من ذلك أن السفن البرتغالية نفسها أخذت، هي الأخرى، تتردد على ميناء البصرة، منذ عام ١٥١٦م/ ٩٢٢هـ، وهي تحمل مختلف السلع الهندية، بما فيها التوابل، وتتزود بالحنطة لإطعام جنودها المرابطين في قلعة هرموز. [٣٤] ويضاف إلى ذلك أن بعضا من تجار العجم الذين أغلق في وجوههم طريق الأنضول، كما أشرنا، أخذوا يستخدمون البصرة كسوق لتصريف سلعهم، أو كمحطة يرسلون منها بضائعهم صحبة القوافل التجارية المنطلقة إلى حلب. كما يستخدمون البصرة أيضاً لنقل بضائعهم إلى الحجاز صحبة قافلة الحج التي

تنطلق منها بانتظام كل عام [٣٥] بقيادة آل شبيب أنفسهم. وذلك للإفلات من طوق الحصار العثماني.

وغني عن القول، إن تراكم الثروة عند حاكم ما، يعطيه الوسيلة الرئيسة لتعزيز قدراته وكيانه وبناء مؤسساته، والتمكن من حشد الأتباع وكسب الحلفاء. وما يهم آل شبيب في المقام الأول، دون شك، هو توثيق صلاتهم بالقوى القبلية، خصوصاً تلك التي تمر بديارها قوافلهم، سواء كانت بمحاذاة غرب الفرات أو في بوادي نجد . والذي يبدو لنا أنهم حققوا نجاحاً كبيراً في ذلكم التوجّه .

- الحواشي والتعليقات

١- إبن الأثير، علي بن محمد، **الكامل في التاريخ**، بيروت، ط٢ دار الكتاب العربي، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٢١٩/٩ ؛ **تحفة المستفيد**، ٢٦٧ . وقد اعتمد مؤلفه على شرح ديوان ابن مقرب العيوني .

٢- من المرجّح جداً أن ذلك النزاع ترتبط أسبابه بما كان يقوم به حاكم إمارة العيونيين في بلاد البحرين الأمير محمد بن أبي الحسين (٥٨٧-٦٠٥هـ/ ١٠٩١-١٢٠٨م)، من حملات عسكرية ضد تلك القبائل التي يمتد نفوذها على طرق الحج المنطلقة من بغداد والبصرة، وذلك بتشجيع ودعم من الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ/ ١١٨٠-١٢٢٥م). راجع حول ذلك: إبن شامه، **تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بالذيل على الروضتين**، نشره عزت العطار الحسيني، طبعة٢ بيروت ١٩٧٤م، ٨٥-٨٦ ؛ جعفر باقر محبوبة، **ماضي النجف وحاضره**، النجف ١٩٥٨م، ٣٢٢/١ ؛ **تحفة المستفيد** ١٠٤-١٠٧، ٢٦٧ .

٣- غَزِيّة، ومن الجدير بالذكر أن هذه القبيلة أصبحت قوة ضخمة، عند طفوف الفرات الأوسط وبادية السماوة، في القرن السابع الهجري/ الثالث عشر للميلاد. ولقد إختلف عزالدين إبن الأثير، في **اللباب في تهذيب الأنساب**، «مادة الغزوي»، بيروت،دارصادر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٠م، ٣٨٠/٢-٣٨١، حول ما أورده السمعاني(عبدالكريم بن محمد)، في **الأنساب**، «مادة الغزوي»، حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٣٨/١٠، بخصوص نسب قبيلة غزية هذه .

٤- خورشيد أفندي، ولاية البصرة في سياحة نامة حدود. نقله عن الروسية

نوري السامرائي، البصرة، منشورات مركز الخليج العربي -١٩٨١، ٥١؛ سليمان فائق، **تاريخ بغداد**، ترجمه عن التركية محمد خلوصي الناصري، بغداد، ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م، ٩-١١؛ إبراهيم فصيح الحيدري، **عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد**، بغداد، دار البصرى، ب.ت ١٠٤-١٠٥ : يعقوب سركيس، **مباحث عراقية**، ق٣، جمع وتعليق معن حمدان علي، بغداد، ١٩٨١، ٣٢٦ ؛ عبد الله الناصر، **تاريخ السعدون**، (النجف، ١٩٤١، ١٢-١٤) ؛ عباس العزاوي، **عشائر العراق**، بغداد، ١٩٥٦، ٤/١٤-٢١ ؛ عبد الجليل الطاهر، **العشائر العراقية**، بغداد، ١٩٧٢، ٦٠-٦٣ .

٥- راجع المصادر والمراجع نفسها في رقم ٤.

٦- لقد نسبهم إلى فضل كل من : إبن عراق، **معدن الجواهر بتاريخ البصرة والجزائر**، تحقيق محمد حميد الله، إسلام أباد، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٣٤؛ الجزيري، **الدرر الفوائد المنظمة**، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ١٧٣٨/٣؛ راجع العصامي، **سمط النجوم العوالي**، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ٣٦٨/٤-٦٩. فالمصدر الأخير أورد اسم محمد بن عثمان بن فضل بمناسبة تعيينه أميراً على معكال، والذي ماهو في الواقع سوى شيخ المنتفق بالبصرة واضطر للهرب منها واللجوء إلى نجد بعد هزيمته أمام العثمانيين، وهناك التحق بحسن بن أبي نمي، شريف مكة ؛ راجع ايضاً، ابن بشر، **المصدر السابق**، ٣٥/٢ . ومن الجدير بالإشارة أن العرب تستعمل الاسم الأخير للانسان ليقصد به اسم الأب المباشر مثلما يقصد به الأب الأصل أي اللقب ، فكلمة ابن تستخدم في كلا المقصدين .

هذا وأن الوثائق العثمانية كثيراً ما رددت هذا النسب حينما تورد ذكراً لأحد شيوخ المنتفق . فعلى سبيل المثال، راجع : Basbakanlik Arsivi (وثائق

رئاسة الوزراء باسطنبول)، مهمة دفتري رقم ١١١ صفحة ٧١٢ في رجب ١١١٢هـ (آب سنة ١٧٠١م) .

وأخيراً راجع : عبد اللطيف الحميدان، " مخطوطة علي بن عبدالله الموسوي "، محتواها وأهميتها، **المجلة العاريخية المغربية**،(١٩٨٣)، ١٠/٢-٣، ١٨١

٧- راجع حاشية رقم ٤ .

٨- وكمثال على ذلك، آل راشد وآل مانع وآل مفامس وآل صقر وآل عثمان وآل سعدون وآل صالح وآل عيسى.. الخ.

وهنا نُذكّر بقول ابن خلدون : «إن القبيل الواحد وإن كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة، فلابد من عصبية تكون أقوى من جميعها، تغلبها وتستبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية واحدة »، **تاريخ ابن خلدون (المقدمة)**، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م، م١/٦/٢٤٥ .

٩- راجع، جاسم مهاوي حسين، **الغزو العيموري للعراق والشام**، رسالة ماجستيرغير منشورة، جامعة بغداد، ١٩٧٦ م ؛ وكذلك راجع

B.F. Manz, The rise and rule of Tamerlan, Cambridge,1989, P95,112.

١٠- راجع، نوري عبدالحميد العاني، **العراق في العهد الجلائري**، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، ١٩٨٦م.

١١- جاسم مهاوي حسين، **المرجع السابق**، ٣٤٣-٣٧٢.

١٢- لعل خير دليل على ذلك هو أن معظم التواريخ المملوكية أوردت أخبار تلك المعركة مما يعكس اهتمام السلطة المملوكية وتتبعها لنشاط تيمورلنك والمخاوف

الواسعة التي أخذت تنتاب الناس منه . فمثل تلك الأخبار ربما يراد بها رفع المعنويات المضطربة .

١٣- ومن الجدير بالذكر أن جاسم مهاوي حسين، في المرجع السابق، أخطأ بقوله أن ناصر القباني زعيم قبيلة عبادة هو الذي استولى على البصرة . ومن الواضح أن الذي حمل الاستاذ مهاوي على هذا التصور الخاطىء هو تحميله لعبارة المؤرخ الفارسي حافظ أبرو مالا تحتمل . راجع : **زبدة التواريخ**، تحقيق فلكس تاور، براغ، ١٩٥٦م ١٦٥/٢ .

١٤- لم نعثر على مصدر يحدد بدقة تاريخ استيلاء مانع بن شبيب على البصرة، في الوقت الذي تجمع المصادر أن فترة الاستيلاء قد وقعت في حدود الفترة التي ذكرناها، حيث قالت :" إنه حدث أوائل القرن (التاسع) في عهد السلطان أحمد بن أويس . ومن الجدير بالذكر أن الأمر اختلط على ابن عراق، أو وقع تصحيف في كلامه، المصدر السابق، ٢٥، حينما قال: بأنه حدث في دولة بني أيوب، في حين أن هؤلاء لم يكن لهم من وجود أصلا في تاريخ العراق، لذا كان يقتضي أن يقول: أنه حدث في دولة بني أويس . راجع أيضاً، القاضي عبد الباسط، **نيل الأمل في ذيل الدول، مخطوطة** ,.MS . BodI-Hunt 285، مكتبة بودليان، جامعة اكسفورد، جـ ١ ورقة ٢٤٣م حوادث سنة ٨٢٠ هـ ؛ والصيرفي، **نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان**، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ١٩٧٠م، ٣٩٩/٢ ؛ الجنابي، **تاريخ الجنابي المعروف بالبحر الزاخر ...** مخطوطة الحرم المكي، رقم ٢ تاريخ، ورقة ٢١٧ ؛ مُنجّم باشي، **جامع الدول**، مخطوطة مكتبة بايزيد بأسطنبول ,.No. 5020 ٣٤٨/٢؛ عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، بغداد ١٩٣٩، ٤٣/٣ .

١٥- راجع ابن عراق، **المصدر السابق**، ٢٥-٢٦.

١٦- ويصور ابن خلدون بلغته المميزة وفكره الثاقب مراحل الانتقال هذه، عندما يقول : «إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها طلبت التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها .. وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضاً، وزادتها قوةً في التغلب إلى قوتها، وطلبت غايةً في التغلب والتحكم أعلى من الغاية الأولى وأبعد، وهكذا دائماً حتى تكافىء بقوتها قوة الدولة . فإن أدركت الدولة في هرمها ولم يكن ممانع من أولياء الدولة وأهل العصبيات، استولت عليها وانتزعت الأمر في يدها وصار الملك أجمع لها ..»، **المصدر السابق** ٢٤٥/١ .

١٧- تجمع **المصادر السابقة** على أن بقايا الجلائريين الذين استقروا في خوزستان قد انتزعوا البصرة من الشيخ مانع في حدود عام ٨٢١هـ (١٤١٨م). لكنها سكتت عن فترة بقائهم فيها . ومن المؤكد أن حكمهم فيها لم يستمر طويلاً، حيث عاد آل شبيب لحكمها بعد حين .

١٨- إبن عراق، **المصدرالسابق**، ٢٧ . إن ابن عراق بعد أن أوجز قصة ظهور المشعشع والذي أخطأ في اسمه فجعله عليا بدلاً من اسم والده محمد بن فلاح، قال : "وساقهم - أي ساق المشعشع أتباعه - على يحيى بن محمد فغلب عليه وقهره وتولى البلاد أربع وثمانين سنة" . وهنا يجب أن لايفهم من هذه العبارة أن المشعشع حكم البصرة مثل هذه الفترة الطويلة، فحكمه لم يتجاوز الواقع سوى ثلاثين سنة . فربما يقصد المؤلف بقوله هو فترة حكم آل شبيب وأن الضمير في الجملة يعود إليهم، مما يقتضي تعديلا بسيطاً في العبارة، لتكون «بعد أن تولوا البلاد أربع وثمانين سنة» . أو أنه أراد أن يشير بعبارته إلى تاريخ استيلاء المشعشع على البصرة الأمر الذي يقتضي أيضا تعديلاً فيها، وذلك بتقديم كلمة سنة، لتكون العبارة « وتولى البلاد سنة أربع وثمانين » . والاحتمال الأخير هو

مانميل إليه، مما يعني أنه قد تم على يد محسن بن محمد بن فلاح . خاصة وأن لقب المشعشع يطلق على الأب مثلما يطلق على ذريته أيضا .

هذا وأن طارق الحمداني قد أخطأ لأسباب يطول شرحها، حينما جعل احتلال البصرة يتم على يد محمد بن فلاح . راجع إمارة آل مغامس .... **المجلة العربية للعلوم الانسانية**، ١٩٨٠م / ٢٧، ٦-١٧ خصوصاً ٩ .

١٩- راجع أرشيف رئاسة الوزراء باسطنبول، **دفتر الطابو** رقم ٢٠٨٢" لسنة ٩٥٩هـ / ١٥٥٢ . Tapu Defteri, Nu, 2082.,

٢٠- Mustawfi, An annotated translation of Jahan -Ghusha yi Khagan , Unpublished Ph D. thesis of Manchester . Univ.1967,212-211

٢١ - إن كتاب المؤرخ البرتغالي بروش (ت ١٥٧٠م) هو مصدر ثمين لتاريخ الخليج العربي خلال القرن العاشر للهجرة / السادس عشر للميلاد، بل يكاد أن يكون المصدر الوحيد لأحداث البصرة هذه ، راجع :

Joao de Barros , Da Asia, Decada, 1vliv iii Cap xiii, (Lisboa Repri, 1979) .p.331-40

هذا ومن المؤسف أن المصادر المتوفرة لم تحدد بدقة تاريخ استعادة آل شبيب للبصرة من جديد . غير أنه يرجح أن ذلك قد حدث بعد سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م بقليل، أي بعد استيلاء الشاه إسماعيل الصفوي على بغداد، وإخضاعه المشعشعين في خوزستان . ويبدو أن انشغال الشاه إسماعيل بأحداث الاناضول شجعت المنتفق على زيادة ضغوطهم على ابن عليان .

راجع، عبد اللطيف الحميدان، مخطوطة علي بن عبد الله الموسوي .. **المرجع السابق**، ١٧٦-١٧٧ .

٢٢- حول سيرة الشاه إسماعيل الصفوي، راجع غلام سروار :

Ghulam Sarwar,History of Shah Ismail Safawi.(Alegrah. 1939)

راجع ايضاً أحمد الخولي، **الدولة الصفوية**، القاهرة ١٩٨١م، ٤٦-١٠٦ .

٢٣- حول دراسة تحليلية للعلاقات العثمانية الصفوية ومعركة جالدران، يمكن أن يراجع إضافة إلى ماسبق، إلى كرامونت .

Jean-Louis Bacque-Gramment, Les Ottoman, Les Safavides et leurs Voisins, istanbul. 1987..

وحول سياسة السلطان سليم العالمية راجع، مزاوي :

M. Mazzaoui, A Global policies of Sultan Selim, in Essays on islamic Civilization. (ed) D.P. Little (Leiden. 1976) 224-34.

٢٤- راجع ، أحمد فؤاد متولي ، **الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته** ، (القاهرة ، ١٩٧٦) خصوصاً الصفحات، ٨٧-٢٢٧، كذلك راجع :

W.W . Glifford, "Some observations on the Course of Mamluk- Safavi Ralations" Der Islam (1993),70/2, P.244-274

٢٥- B. Diffie and G. Winius, Foundation of the Portuguese-Empire. (U. S. A. 1977) . 220-71..

راجع أيضاً ، عبد الأمير محمد امين ، دراسات في النشاط التجاري والسياسي الأوربي في آسيا، عمان ١٩٨٧م، ١-٩ ، ٥٠-٥٢، ٨٠-٨٢

٢٦- أحمد بوشرب، «مساهمة الوثائق البرتغالية في تاريخ الغزو البرتغالي لسواحل المغرب والبحر الأحمر والخليج العربي»، مجلة المناهل (المغرب)، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٢٦/٧٧-٧٩ :

F. C. Danvers,The Portuguese in India (New Delhi. Re-pri. 1988)..

٢٧- تقع مدينة هرموز القديمة على البر الفارسي المقابل لجزيرة جرون، عند مصب نهر ميناب، في خليج (خور) ميناب (ميناو). ثم انتقلت تلك المدينة عند مطلع القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد إلى جزيرة جرون نفسها لتصبح بعد حين مركزاً لمملكة خليجية واسعة.

ويرى المؤرخ الإيراني عباس إقبال أنّ إسم هرموز ماهو إلا تحريف لكلمة خورموز أو خورموغ، والمؤلفة من كلمتي خور العربية التي تعني الخليج الذي ينتهي بمرسى للسفن، ثمّ موغ وهو إسم المنطقة التي كانت تقع فيها (موغ - ستان). راجع مطالعاتي درباب بحرين وجزائر وسواحل خليج فارس، طهران، ١٣٢٨هـ

٢٨- ELaine Sanceau, Indies Adventure, (London. 1963). P. 281-82.

٢٩- W. De Cray Birch, The Commentaries of The Great Afonso Dal Boquerque, London 1884, IV. 153-5, 175 -78 ; Denvers, Op.Cit.

1,308-26 ., Ronald B. Smith, The First Age of the Portuguese Embassies in Persia (1507 - 1524), Bethesda, Maryland,1970, PP.35-55 ; L. da Mates, Das Relecoes entre Portugale a Persia , Lisboa, 1972, P.156-157.

٣٠- Jean-Louis Bacque- Grammont, "Note Sur Le . Blocus du Commercelranien par Selim ler, In, Turcica (1975), V1, P.68,87.

٣١- Ibid., Hans - Joachim Kissling, "Shah Ismail ler La Nouvelle Route des Indes et les Ottoman. " In Turcica (1975),VI, P.8,102.

٣٢- R.B. Smith, Joao de Meira ... Voyages to Basra in 1517 and 1521, Lisboa, 1973, P.26-27.

٣٣ - أحمد بو شرب ، المرجع السابق .

٣٤- Smith, Op.cit.

٣٥- Bacque - Gramment, Op. cit ,75-77.

نهوض إمارة آل شبيب

- آل شبيب يُقصون آل جبر من الأحساء
- راشد بن مغامس سلطان على الأحساء
- الحواشي والتعليقات

- آل شبيب يُقصُون آل جبر من الأحساء

إن تولي زعيم الجبور القوي مقرن بن زامل زمام السلطة في إمارة الجبور في حدود سنة ٩٢١هـ / ١٥١٥م ، قد تزامن مع بداية ظهور أطماع الصفويين والهرمزيين والبرتغاليين في بلاده ، والتي كانت تضم البحرين والأحساء والقطيف ، إضافة إلى أجزاء واسعة من نجد وعمان ، وقد تزايدت تلك الأطماع بعد أن رافقتها مخاوف عدة من تصاعد قوة مقرن واتساع نفوذه[١] .

ولم يكن آل شبيب ، وهم في البصرة ، بمعزل عما يجري في إمارة الجبور ، بل لعلهم متورطين في بعض أحداثها . فبعد أن أطاح مقرن بن زامل بحكم خاله السلطان صالح ، لجأ الأخير ، على أرجح تقدير ، إلى البصرة ، وطلب مساعدتهم . ولعل المعارك التي خاضها السلطان المعزول ضد السلطان الجديد مقرن ، كانت بدعم من آل شبيب ، وذلك بالإيعاز إلى حلفائهم الأقوياء ،كقبيلة بني خالد وبني لام (الفضول) [٢] ، بتقديم المساعدةإليه . وإذا ماكان قد حدث هذا فعلاً ، فلعله يفسر لنا سبب قيام أسطول السلطان مقرن بمهاجمة المراكب التجارية المترددة على البصرة[٣] ، إن لم يكن هناك سببا آخر غير ذلك .

لم يقف آل شبيب في تآمرهم على السلطان مقرن عند هذا الحد ، بل قاموا بمحاولة التقرب من البرتغاليين والتحالف معهم ضده ، حيث نجد أن الشيخ محمد بن مغامس الفضلي ، سلطان البصرة يبعث برسالة إلى دي سكويرا De Sequeira حاكم الهند البرتغالية (١٥١٨-١٥٢٢م) سنة ١٥١٩م (٩٢٥هـ) تتضمن استعداده لدفع مبلغ ١٢٠٠ لك Lack (اشرفي)(٤) ،إذا ما ساندوه في الاستيلاء على البحرين والقطيف، واللتين سوف يعترف بتبعيتهما لملك البرتغال . وقد قام دي سكويرا بدوره بإرسال تلك الرسالة إلى العاصمة البرتغالية لشبونة للحصول على موافقة ملك البرتغال عليها[٥] .

ومما يجدر ذكره ، أن الباحث يجد صعوبة في معرفة أهداف سلطان البصرة ودوافعه من تلك الرسالة بشكل دقيق، إلا أنها لاتعدو أن تكون محاولة منه للرد على ماكان يقوم به السلطان مقرن من محاولات للإضرار بتجارة البصرة البرية والبحرية .أو أن يكون أوسع من هذا وهو الهيمنة بشكل مباشر على أهم موردي للثروة في تلك البلاد ، وهما الخيول واللؤلؤ. يضاف إلى ذلك موارد طريق الحج الأحسائي. وإذا ماتحقق لآل شبيب ذلك فإنهم سيكونون ، دون شك ، من أكثر القوى ثراءاً في المنطقة .

على أن سلطان البصرة كان يدرك سلفاً شدة طمع الهرموزيين في تلك البلاد وتكالبهم في الإستيلاء عليها ، فهو يريد ، دون شك، إحباط مساعيهم هذه بأن يسبقهم إليها.

لكن رسالة سلطان البصرة هذه ربما كشفت للبرتغاليين أطماعه في البحرين والقطيف، والتي تمثل في الواقع ، خطورة شديدة عليهم ، إضافة إلى خطورة السلطان مقرن نفسه ، مما دفع بهم إلى الإسراع في قطع الطريق عليه بضرب الاثنين معاً ، وذلك بغزو تلك البلاد بالتعاون والتنسيق مع الهراموزيين والتي انتهت بالاستيلاء عليها سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م وقتل سلطانها مقرن [٦] . لذا فإن رد ملك البرتغال الذي نقله القبطان دي ميرا† De Meira إلى سلطان البصرة، لم يصل إلا في شهر آب (أغسطس) سنة ١٥٢١م/٩٢٧هـ[٧]. ويبدو أن الرد قد تضمن إبلاغ سلطان البصرة بقرب القيام بحملة عسكرية هرموزية - برتغالية مشتركة ضد السلطان مقرن الجبري،وهو ما كان قد تمّ فعلاً في الشهر المذكور أعلاه

لقد كان لتلك الحملة آثاراً عميقةً على كيان الجبور.فبعد قتل سلطانهم القوي مقرن وانتزاع أغنى ممتلكاتهم، جزيرة البحرين وميناء القطيف، الأمر الذي اربك أوضاعهم على الأصعدة كافة ،خاصةً بعد أن أظهر سلاطينهم الذين تولوا حكم الأحساء، عقب هذا الحدث الخطير، عجزهم وعدم جدارتهم على انتشال البلاد من وهدتها التي هي فيه ، مما أفقد إمارتهم تلك المكانة البارزة التي كانت عليها في السابق.

وكان طبيعياً أن تبرز الخلافات والإنقسامات داخل البيت الحاكم ،[٨]وأن يرى بعض

وكان طبيعياً أن تبرز الخلافات والإنقسامات داخل البيت الحاكم ،[٨]وأن يرى بعض قادتهم البارزين أن لا سبيل لكشف ما دهاهم ورفع بلواهم سوى التطلع إلى آل شبيب، حكام البصرة الأقوياء. ولعلّ فيما ذكره المؤرخ الجزيري عن قيام إتصالات بين بني جبر والشيخ راشد الفضلي، الرجل القوي في بيت آل شبيب، حيث قال : «واستعان به بنو جبر لضعف حالهم»[٩]. إذ تبرز مؤشر واضح على تفكك وتداعي كيان الجبور .

والذي يبدو أن آل شبيب أنفسهم، قد تزايد إهتمامهم بأحوال آل جبر منذ فترةٍ من الوقت. ولعلّ في اتخاذ الشيخ محمد بن مغامس الفضلي، سلطان البصرة، وزيراً له يدعى أحمد بن عميرة الخالدي ، والذي يشير إحتمال إنتمائه لقبيلة بني خالد، ذات النفوذ القوي في بادية الأحساء [١٠]، أن يكون في إختيار إبن عميرة إعتباراتٍ سياسية . لذا فمن المحتمل أنّ آل شبيب كانوا قد سعوا من جانبهم لاستمالة بعض زعماء الأحساء وإقامة صلاتٍ طيبة معهم ، وهو تمهيد لا بدّ منه ، من أجل مد نفوذهم إلى هناك .

على أن أمراء آل شبيب كانوا يدركون جيداً ، أن أية محاولة منهم للتدخل في شؤون الأحساء ربما تجابه بردود فعل غاضبة من جانب البرتغاليين والصفويين على حد سواء ، مما قد يؤدي إلى إلحاق الضرر بمصالح مملكتهم نفسها ، لذا فإنهم رأوا بأن التريث بانتظار الفرصة المواتية هو أسلم طريق لتحاشي مثل تلك الأخطار المحتملة . ولقد واتتهم تلك الفرصة فعلاً ، نتيجة عوامل عديدة ، منها ، وفاة الشاه إسماعيل الصفوي عام ٩٣٠هـ/١٥٢٤م وما أعقبه من صراعات وحروب بين الصفويين أنفسهم، الأمر الذي أشغلهم بشؤونهم الداخلية [١١] . كذلك إنشغال البرتغاليين بوصول إبراهيم باشا ، الصدر الأعظم ، إلى مصر في أوائل سنة ٩٣١هـ/١٥٢٥م على رأس قوة عثمانية كبيرة ، إثر عصيان واليها أحمد باشا ، وبقائه هناك فترة طويلة نسبياً [١٢]، الأمر الذي جعل البرتغاليون يتوجسون من احتمال خروجه على رأس حملة بحرية من هناك تستهدفهم في بحر العرب .

وأخيراً لابد ان نشير إلى أن النزاع بين آل شبيب وبين ابن عليان الطائي، والذي كان قائماً منذ عدة سنوات،[١٣] ليس هو بالخطر الداهم الذي قد يحدق بالبصرة .

وعلى أي حال فإن آل شبيب حزموا أمرهم وقاموا بالتدخل عسكرياً في شؤون الأحساء بقيادة راشد بن مغامس ، في أوائل عام ٩٣١هـ / أواخر عام ١٥٢٤م أو أوائل العام الذي تلاه [١٤] ، مما يحمل على الاعتقاد بأن توقيته كان مرتبطا أشد الارتباط بالأوضاع السائدة في المنطقة، والتي أشـرنا اليها، إضافة إلى أوضاع الجبور أنفسهم . إلا أننا لانملك معلومات كافية، مع الأسف، عن خطط هذا التدخل، ولا عن الكيفية التي تم بها، فمصدرنا الوحيد هو الجزيري وما علينا سوى التأمل جيداً في ألفاظه ومراميه .

وعلى أي حال، فخطط التدخل قد أعدت بتكتم شديد، ومسيرتها لم تكن توحي بمقصدها وهدفها لحين وصولها إلى الأحساء، وانضمام جميع المشاركين بها والمتحمسين لفكرتها . وهنا يقتضي القول، أنه من المستبعد أن يكون زعماء الجبور قد فكروا فيما سوف يقدم عليه الشيخ راشد عقب ذلك، حيث يحتمل أن كرههم الشديد لحاكمهم ولهفتهم إلى رؤيته وقد أطيح به، حجبت عنهم تصور ما سيحدث لبلادهم مستقبلاً . في حين كان الشيخ راشد من جهته، قد حزم أمره وبيّت ماكان ينويه وأعد الوسيلة التي يعتزم اتباعها، وهو مانفذه فعلاً، ونجح فيه .

ولعل كريستوفاو دي مندوزا Cristovao de Mendoca ، قبطان هرموز، أي حاكمها البرتغالي ، (١٥٢٧ -١٥٣٠م) ، كان يشير إلى سلوك راشد السياسي حينما تحدث عنه في رسالته لملك البرتغال واصفاً إياه بقوله : « إنه قد تمكن بدهائه من الاستيلاء على كل البلاد التي هي بحوزته الآن » [١٥] .

أما الجزيري فقد عبر عن معنى قريب من ذلك، لكن بأسلوب مغاير، حينما قال: «قوي عليهم وأخذ منهم الحسا والقطيف وأعمالها ».[١٦] كما يفهم من عبارة أخرى للجزيري نفسه ، تشير بصراحة إلى استخدام الشيخ راشد السلاح في أثناء استيلائه على الأحساء، او على الأقل في بعض مراحله . فحينما عدد الجزيري سلاطين الجبور الذين تعاقبوا على حكم البلاد ، بعد استشهاد السلطان مقرن ، ذكر بأن آخرهم كان غضيب (قضيب) بن زامل بن هلال الجبري ، وأنه حكم سبعة أشهر ، ثم قال «فأخذها منه بالحرب الشيخ راشد بن مغامس ...»[١٧] .

وهنا يقتضي تصحيح خطأ تاريخي وقع فيه الجزيري نفسه، حينما أقحم القطيف ضمن ما استولى عليه الشيخ راشد في أثناء حملته هذه . فالقطيف كانت، في الواقع ، قد خرجت من أيدي الجبور قبل ذلك بفترة من الوقت، إذ هي في تلك الأثناء كانت تحت حكم الهرموزيين[١٨] .ولم يتسن لراشد الاستيلاء عليها إلا بعد مضي أكثر من عشر سنوات من استيلائه على الأحساء ، كما سوف نرى .

وعلى أي حال، أسقط بأيدي زعماء الجبور باستيلاء الشيخ راشد على بلادهم، وشعروا بالخطأ الفادح الذي ارتبكوه ، عندما انساقوا خلف عواطفهم الغاضبة ، واستعانوا بمن هو أقوى منهم وذو أطماع خارجة عن سيطرتهم ، لذا فضل قسم منهم النزوح من الأحساء إلى عُمان ، حيث نجد لهم ثقلاً سياسياً كبيراً فيها عقب هذه الفترة [١٩] . في حين انضوى قسم آخر منهم تحت كنف الهرموزيين بالقطيف، إذ نجد عدداً كبيراً منهم يقيم هناك ويؤازر الهرموزيين ويدعمهم ، بل ولربما تسلموا حكم القطيف منهم [٢٠] لفترة من الوقت وليقفوا بقوة في وجه أطماع بني خالد هناك ، ثم مالبثوا بعد حين أن انقلبوا على الهرموزيين أنفسهم [٢١]، كما سوف نرى .

- راشد بن مغامس سلطاناً على الأحساء

في البداية يجدر بنا الوقوف عند نقطة هامة تتعلق بما أثاره المؤرخ الجزيري من إشكال تاريخي حينما وصف راشد بن مغامس بأنه سلطان البصرة ، عندما قام بحملته على الأحساء .[٢٢] ويدخل في هذا الصدد قوله أيضاً : بأن الشيخ راشد ، بعد إكمال مهمته بنجاح في الأحساء.. عقد ولاية البصرة لأخيه محمد وأقام هو بالحسا والقطيف [٢٣].

إن استقراء الوقائع والأحداث والتدقيق في المصادر القريبة منها ، يتضح خطل التصور الذي ذهب إليه الجزيري . فراشد لم يكن في الواقع سلطاناً على البصرة أثناءها بل أخوه الأكبر محمد كان هو سلطانها[٢٤] ، أما راشد فلم يكن سوى ساعده الأيمن والمشارك النشط في إقامة إمارة آل شبيب ، والمتميز بشجاعته وحنكته بين أبناء مغامس . أما توليه قيادة حملة الأحساء فلأنه الرجل الكفء لهذه المهمة بما اشتهر عنه كقائد قديرللمنتفق ، بل وقد يكون إسناد قيادتها له قد تم برغبة شخصية منه، وباتفاق مع زعماء الأحساء، أنفسهم والذين على اتصال معه . ويدخل في هذا التعليل أيضاً احتمال أن تكون العلاقة بين الأخوين محمد وراشد قد أصابها توتر، وفتور خلال هذه الفترة ، كما سوف نشير إليها بعد بضعة أسطر ، الأمر الذي دعا راشد إلى أن يبتعد عن البصرة برغبته الشخصية، أو أن أخيه محمد هو الذي رغب بذلك .

ويلاحظ أن أقوال الجزيري تفتقرُ إلى الدقة أيضاً ، في جانب آخر غير ماذكرنا ، فهو قد جعل استيلاء الشيخ راشد بن مغامس على القطيف قد تم جنباً إلى جنب مع استيلاءه على الأحساء[٢٥] . فالوقائع تناقض ذلك، إذ أن القطيف، وكما سبق أن مرينا، كان قد تم استيلاء الهرموزيون عليها بمشاركة البرتغاليين سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢١م [٢٦]، وأنها بقيت تحت حكمهم ، فترة طويلة نسبياً، إلى أن انتزعها الشيخ راشد منهم في سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م، كما سوف نرى .

وآخيراً فإن قول الجزيري بتنازل راشد عن البصرة لأخيه وليرتضي بالأحساء، هو مما لا يتعارض مع الحقائق التاريخية التي أشرنا إليها أعلاه فحسب، بل ومع المنطق أيضاً ، إذ كيف يقنع ، قائدٌ طموحٌ ، مثل راشد بغنيمة الأحساء ويتنازل في مقابلها عن البصرة، الأكثر أهميةً وثراءً .

فإقامة الشيخ راشد بن مغامس في الأحساء ، فترة دامت قرابة ثلاث سنوات ومن دون أن يغادرها ، على أرجح تقدير ، مسألة يمكن أن تعلل وتفسر على أنها ناجمة عن خلافات ربما كانت شديدة قد نشبت بين الأخوين راشد ومحمد . ولعل من بين أسبابها الخلاف حول وراثة الملك ، حيث من الممكن أن يكون الشيخ محمداً راغباً في جعل ولده الأكبر عثمان وريثاً له وبأن يتم تقسيم المملكة بينه وبين أخيه راشد ، بحيث تكون البصرة له ولأولاده ويأخذ أخوه راشد حكم الأحساء له ولأولاده ، وهذا الأمر قد ولّدَ استياءً شديداً لدى الأخير ، مما دفعه للاعتزال بالأحساء مغاضباً لأخيه .

وعلى أي حال ، فإن الشيخ راشد ، خلال فترة إقامته بالأحساء بذل نشاطاً كبيراً في إقرار الأمن والنظام فيها ، وترويج تجارتها وإنعاش اقتصادها . ويبدو أن هذه السياسة قد أثمرت . فأخذت القوافل التجارية البرية تتردد مابين البصرة ومناطق الأحساء والبحرين[٢٧] . كما أن قافلة الحج الأحسائي قد استأنفت سيرها ، والتي ينضم إليها في العادة سكان سواحل الخليج العربي ، إضافة إلى سكان جنوبي إيران . وقد أورد الجزيري ذكراً لإحدى تلك القوافل التي قادها الشيخ راشد بن مغامس شخصياً سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٧م وضمت في صفوفها خمسة آلاف حاج، وصفهم بأنهم «من بلدان شتى»[٢٨] . ولاشك أن اجتياز هذه القوافل لمناطق نجد المختلفة ، دليل على هيبة حاكم الأحساء وصلاته الحسنة مع تلك الزعامات التي تمر بديارهم تلك القوافل . مما يعني أيضاً أن نفوذ آل شبيب قد أخذ يحل محل نفوذ الجبور في أجزاء واسعة من نجد بل إن بعضا من مناطقها قد خضعت لحكمهم المباشر فعلاً . ولعل ما أورده العصامي بخصوص غزوة حسن إبن أبي نمي شريف مكة لروضة معكال [٢٩] سنة ٩٨٦هـ (١٥٧٨م) ليدلل على ذلك، فقد

ذكر أن الشريف نصّب محمد بن عثمان بن فضل أميراً عليها ، وعلّل هذا الاختيار له بقوله .. " حيث لم يبق من بيت سلطنتهم إلا هذا النسل" .[٣٠] وبتعبير آخر أن معكال كانت من ممتلكات إمارة آل شبيب خلال حكمهم للأحساء ، فأعادها الشريف حسن إليهم في شخص محمد بن عثمان بن فضل ، والذي كان شيخ المنتفق في البصرة ، وقاوم العثمانيين بعناد شديد ، إلى أن اضطر للهرب من أمامهم إلى نجد بعد فشل ثورته.[٣١]

ويمكننا أن نضيف افتراضات أخرى أيضاً ، وهو أن الطريق ما بين اليمن وسواحل الخليج العربي ، عبر وادي الدواسر والأفلاج ، قد انتعش أيضاً واستعاد نشاطه ، بعد أن تقلص النشاط التجاري البحري لموانىء اليمن ، بما فيها عدن ، جراء غزو المماليك لسواحلها وظهور البرتغاليين في بحر العرب. وإذا ماصح هذا الافتراض ، فلابد أن يكون الشيخ راشد قد أعطى اهتماماً لهذا الطريق من أجل سلامة القوافل التجارية التي تسلكه، خاصة ، وأن الأحساء إحدى محطاته الرئيسة نحو شواطىء الخليج .

بقيت أخيراً جهة لم يشر إلى أهميتها حتى الآن ، وهي الجهة الساحلية للأحساء ومنافذها البحرية ، والتي لابد أن يكون الشيخ راشد بن مغامس مدركا أهميتها الاقتصادية الكبيرة ، ويتطلع لبسط سيطرته على امتدادها وبالأخص على كل من القطيف وجزيرة البحرين . إلا أنه يشعر دون شك ، بأن تحقيق مثل هذا الهدف وضمان نجاحه، لابد له من استعداد مناسب لمواجهة احتمالاته ، فوزير البحرين الرئيس بدر الدين بن محمد شاه الفالي قد ساورته شكوك ومخاوف كثيرة إثر استيلاء الشيخ راشد على الاحساء ومجاورته لبلاده . إضافة إلى ذلك أن عرب البحرين عموما كانوا يكنون الكراهية له ويتمنون زواله، وأن اقتراب الشيخ راشد بن مغامس من بلادهم ربما أثار حماسهم وأنعش آمالهم بإمكانية الخلاص منه .

وعليه فإن وزير البحرين هذا بادر باتخاذ إجراءات سريعة استهدف من ورائها التحوط من هجوم مفاجىء قد يقع على البحرين، فمنع أصحاب السفن، والذين كان معظمهم من

العرب، أن يخرجوا من البحرين صوب موانىء البصرة والأحساء (العقير) وريشهر،[٣٢] دفعة واحدة وبأعداد كبيرة، وكذلك حين العودة من تلك الموانىء إلى البحرين . وقد فهم عرب البحرين أنهم هم المقصودون بهذه الإجراءات ، والتي يرمي حاكمهم الفارسي من ورائها التضييق عليهم وإضعافهم ، لذا أثاروا ضجة حوله وصعّدوا من كراهيتهم نحوه وتمردوا عليه وخرقوا تدابيره تلك .[٣٣]

ومن الجدير بالذكر ، أن الرئيس شرف الدين لطف الله الفالي ، كبير وزراء مملكة هرموز، انبرى مدافعاً عن سياسة ابن عمه وزير البحرين ، بعد تلك الضجة التي أثيرت حولها ، وذلك ضمن رسالة طويلة كتبها لملك البرتغال ، نقتبس بعضاً من فقراتها المتعلقة بما نحن بصدده، برغم ركاكة لغتها العربية. حيث يقول : "والبلد البحرين واقعة بين البصرة واللحصاء [الأحساء] والريشهر ، وسلاطين البلدان المذكورة من عهد القديم إلى الآن، طلبوهم -هدفهم- تسخير البحرين . وبعد المسافة والطريق من البلدان المذكورة إلى البحرين ليس إلا ليلة ويوم، أو ليلان ، وإذا اجتمع فيها الأخشاب[٣٤] والسفاين المتعددة في بنادرهم ، اخذوا منهم الزوارق والسفاين ، ويطلعون عليهم العساكر ويتوجهون إلى البحرين. ووقعت قبل ذلك هذا الأمر ، كما سطر بالكرات والمرات . والآن رئيس بدر الدين المذكور بناء على دفع الأعادي ومحافظة مُلك السلطان ، منع النواخذة[٣٥] بأن ماتسيرون إلى البنادر[٣٦] المذكورة بالسفاين الكثيرة ، بل سافروا بجلبة واحدة أو جلبتان[٣٧] حتى ترجع إلى البلد ، ثم تسافر واحدة آخرى ..."[٣٨]

على أنه من المحتمل أن قبيلة آل مسلم التي تمارس نشاطها في أعمال الغوص والنقل التجاري عند ساحل قطر والعقير بسفنها التي قدرت بثلاث آلاف سفينة،[٣٩] قد ضامها تدابير وزير البحرين فشاركوا في مقاومتها مدعومين بسلطانهم راشد. ويبدوأن تدابير الرئيس بدر الدين الفالي لم تستمر طويلاً على كل حال، خاصة وأن قبطان هرموز ديوغو دي ميلو Diogo de Mello (١٥٢٣-١٥٢٦م) المعروف بشدة جشعه ،قد تجاوب مع تلك الشكاوى التي تقدم بها شيوخ العرب والنواخذه في البحرين ضد بدرالدين لكي يبتز

أسرة الفالي.[٤٠]

وعلى أي حال ، ففي نهاية تلك الفترة من حكم الشيخ راشد للأحساء ، وصل إليها وفد يضم كلاً من الشيخ مهنا بن صقر عميد بيت المنتفق وعم الشيخ راشد ويحيى بن محمد بن مغامس بن أخي الشيخ راشد إضافة إلى محمد بن عبد العزيز الشهير بزقزاق (ت ٩٣٥هـ / ١٥٢٨ - ٢٩م) قاضي البصرة ، والذي سبق له أن تولى قضاء الأحساء في عهد الجبور[٤١]، قادمين من البصرة سنة ٩٣٣هـ / ١٥٢٧م . ويبدو أن لحضورهم إلى الأحساء علاقة وثيقة بما أشرنا اليه سابقاً من احتمال وجود خلافات بين الأخوين راشد ومحمد ، وأن غرضهم هو تسويتها والبحث في أوضاع البصرة وإقناع الشيخ راشد بضرورة الخروج من عزلته الطويلة في الأحساء والعودة إلى البصرة ، خاصة وأن أخاه محمداً قد شاخ وتدهورت صحته ، فأضحى عاجزاً عن تسيير شؤون البلاد . ويبدو أن الوفد نجح في مسعاه بدليل أن الشيخ راشد انطلق من الأحساء على رأس قافلة الحج الأحسائي وبرفقته الوفد المذكور، ثم توجه وإياهم من الحجاز إلى البصرة مباشرة.[٤٢]

وبعد وصوله إلى البصرة بفترة قصيرة تولى الحكم فيها إثر وفاة أخيه محمد . وبهذا تكون فترة حكم الشيخ راشد بن مغامس الفضلي المباشرة في الأحساء والغنية بالتجربة والإنجازات قد انتهت منذ أن غادرها متوجهاً إلى الحج تاركاً مقاليد السلطة فيها لولده الشيخ مانع .

- الحواشي والتعليقات

١- راجع، عبد اللطيف الحميدان، «الصراع على السلطة في دولة الجبور بين المفاهيم القبلية والملك»، **دراسات تاريخية**، أشرف على إخراجه د . محمد سعيد الشعفي (منشورات جامعة الملك سعود، مركز البحوث بكلية الآداب، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م)، ٢/٤٣-١٠٢ .

٢- شاع إطلاق اسم الفضول على عدد من بطون قبيلة بني لام ومن أبرزها آل غزيّ، راجع، كاظم محمد علي شكر، **قبيلة الفضول اللامية**، (النجف ١٩٧٥م - ١٣٩٥هـ) . هذا وقد نزح من نجد قسم كبير من الفضول نحو بادية البصرة، في حدود النصف الأول من القرن العاشر / السادس عشر على أرجح تقدير.

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ النجدي ابن بسام أشار إلى نزوحهم إلى العراق وخوزستان وعودة البعض منهم إلى نجد، وذلك ضمن حوادث سنة ١٠٨٥هـ/ ١٦٧٤م . على أنه يجب أن لايفهم بأنه كان يريد بذلك تحديد تاريخ نزوحهم . فكل ما أراده ابن بسام هو الإشارة إلى قوة سعدون، زعيم بني خالد وامتداد نفوذه في تلك الفترة نحو الشمال، حيث حدود العميري، زعيم الفضول المشهور في أطراف البصرة . راجع، **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق**، مخطوطة نقلها عن الأصل المحفوظ لدى أسرة المؤلف ، الأستاذ شرابيه سنة ١٣٧٥هـ، الورقة ٤٩ ب . ٣- راجع، عبد اللطيف الحميدان، **«الصراع على السلطة في دولة الجبور»، المرجع السابق**، ١٩-٢٠ .

٤- اللك Lack كلمة شاع استعمالها في مناطق واسعة من المحيط الهندي منذ فترة طويلة لتعني عشرة آلاف في حين تعني في مناطق أخرى مائة ألف . وكان قد راج استخدام الكلمة في منطقة الخليج العربي. وهي تعني في هرموز «جرون»

وحدة حسابية مثلما تعني الوحدة النقدية لجرون التي هي الدينار ذو القيمة الصغيرة والمضروب من غير معدن الذهب الخالص. حيث يساوي ٨٣,٣٣ أشرفي. مما يعني أن المبلغ المذكور في متن البحث هو مائة ألف أشرفي.راجع أدناه

H. Yule & A. C. Burnell., Hobson - Jobson, London. New - Edition, 1985. PP. 500-501;

كذلك راجع، الأرشيف الوطني البرتغالي في لشبونة

ARQUIVO NACIONAL DA. TORRE DO TOMBO, LISBOA, 183;

وحول العملات في الخليج العربي راجع :

W. Hinz, "Die Spatmittelal terlichen Wahrungen im Bereich des Persischen Golfes"

« عملات العصور الوسطى المتأخرة في منطقة الخليج الفارسي [العربي] »

in IRAN and Islam (ed.) C.E. Bosworth, Edinbourgh, 1971,P.303-314.

٥- Smith,Joao de Meira ... .. Voyages Basra, PP 26-7; Idem, First Age of the Portuguese Embassies, P.60-61.

٦- عبد اللطيف الحميدان . التاريخ السياسي لدولة الجبور ، المرجع السابق، ص٥١-٢٣ .

٧- راجع ، Smith, Joao de Meira...

٨- الجزيري ، المصدر السابق ، ١٧٢٨/٣ .

٩- يحيى ابن ابراهيم البصري، قائم الدرر في مناقب السادة الغرر . مخطوطة أحمد السمدان ، المستنسخة عن الأصل المخطوط في مكتبة باش أعيان بالبصرة،٧٤ .

١٠- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

١١- M. Dickson, Shah Tahmas and the Ozbekes, Unpublished Ph. D. Princeton,1958.

١٢- قطب الدين النهروالي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، اعتنى بنشره حمد الجاسر، الرياض ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ، ٣٧-٣٨ ؛ مانتران وآخرون ، تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمة بشير السباعي ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ٢١٩/١ .

١٣- Barros, Op. cit, Dec. IV. Liv. 111. Cap: x111. P. 331-40, 242-3.

١٤- الجزيري ، المصدر السابق ، ١٧٢٨/٣ .

١٥- As Gavetas da Torre de Tombo, Lisboa, 1965, vol. v. p. 108-116. No.3546.

(الأرشيف الوطني البرتغالي في لشبونه). وحول التعريف بمحتويات هذا الارشيف، راجع

S. Ozbaran, A Review of Portuguese and Turkish Sources for the Ottoman in Arabia and Indian Ocean in the 16th Century, Belleten, C. xlix, Sayi. 193(1985), 65-78.

١٦- الجزيري ، المصدر السابق ، ١٧٢٨/٣ .

١٧- المصدر نفسه .

١٨- راجع ماسبق ، صفحة(٤٤) .

١٩- عبد اللطيف ناصر الحميدان «نفوذ الجبور في شرق جزيرة العرب (عُمان)....»، **مجلة كلية الآداب بجامعة البصرة**، (١٩٨١) ، ١٧-١٨/ ٢١١-٢٤٠

٢٠- الأرشيف الوطني البرتغالي في لشبونة، **مجموعة الوثائق الشرقية**، Documentos Orientais رقم ٩٣/..No.93 «رسالة الرئيس ركن الدين بهاء الدين الى الرئيس شرف الدين لطف الله في العاشر من ربيع الأول سنة ٩٤٢هـ» (أيلول ١٥٣٥م) . .

٢١- المصدر نفسه .

٢٢- الجزيري ، المصدر السابق .

٢٣- المصدر نفسه .

٢٤- إبن عراق ، المصدر السابق ، ٣٧ ؛ يحي بن إبراهيم البصري ، تمائم الدرر، ٧٤.

٢٥- المصدر السابق .

٢٦- راجع ماسبق .

٢٧- الأرشيف الوطني البرتغالي في لشبونة، **مجموعة الوثائق الشرقية**، Documentos Orientais رقم ٩٣/..No.93 «رسالة الرئيس ركن الدين بهاء الدين إلى الرئيس شرف الدين لطف الله " .

٢٨- المصدر السابق ؛ كما أن محمد بن أبي بكر الشلّي ، **السنا الباهر بتكميل النور السافر عن أخبار القرن العاشر** ، مخطوطة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٦ تاريخ، ٣٥١-٥٢، أشار إلى هذه القافلة، وذلك عندما ترجم للشيخ محمد بن عبد العزيز بن إسماعيل المعروف بالزقزاق .

٢٩- تقع روضة معكال جنوبي الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية، وهي اليوم حي من أحيائها، راجع عبدالله بن محمد بن خميس، **معجم اليمامة** ، ٣٧٩/٢-٨٠ ، الرياض، الطبعة الثانية ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٣٠- العصامي، **المصدر السابق**، ٣٦٨/٤-٦٩ .

٣١- لقد سبق لمحمد أن تولى الْملك في البصرة وهو طفل صغير ، وذلك في أعقاب وفاة والده لكنه عزل بعدها ببضعة أشهر ، وقد أصبح فيما بعد زعيماً للمنتفق وقاوم العثمانيين بعنف .

٣٢- ريشهر ، ميناء على ساحل فارس المقابل لجزر البحرين، والقريب من ميناء سيراف القديم ، حيث حل محله .

٣٣- الأرشيف الوطني البرتغالي في لشبونة ، **مجموعة الوثائق الشرقية**، رقم ٤٤/ No.44 .

٣٤- الأخشاب لفظ عام يطلق على جميع أنواع المراكب ، وقد يخص القوارب نفسها أحياناً . راجع ، حسن صالح شهاب ، **المراكب العربية** ، الكويت ، ١٩٨٧ ، ٥٥-٥٦ .

٣٥- النواخذه ، كلمة فارسية جمع نوخذه ، وهو صاحب السفينة المتاجر بها والذي يرافقها ويتولى تصريف شؤونها ، وقد يقصد به الربان نفسه . **المرجع السابق** ، ٢٨٢-٢٨٤.

٣٥- النواخذه ، كلمة فارسية جمع نوخذه ، وهو صاحب السفينة المتاجر بها والذي يرافقها ويتولى تصريف شؤونها ، وقد يقصد به الربان نفسه . **المرجع السابق** ، ٢٨٢-٢٨٤.

٣٦- البنادر ، جمع بندر وهي كلمة فارسية الأصل تعني الميناء أو المرسى ، وقد شاع استخدامها في البحار العربية .

٣٧- الجلبة ، نوع من السفن المستخدمة في البحر الأحمر والخليج العربي ، راجع حولها ، درويش التخيلي ، السفن الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٣، ٢٧-٢٩ . كذلك راجع ، حسن صالح شهاب ، المرجع السابق، ٤٥-٤٧ .

٣٨- راجع ، **مجموعة الوثائق الشرقية** ، رقم ٤٤/ No.44

٣٩- جنكيز أورهنللو ، تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩ ، ترجمة حسين الداقوقي عن التركية ، **دراسات الخليج والجزيرة العربية** (الكويت)، ١٩٨٠م، ٢٤/٢١١-٢١٧م . خصوصا حاشية رقم (٨).

٤٠- **الوثائق الشرقية** رقم ٤٤ .

٤١- الجزيري ، **المصدر السابق** ، ١٧٢٨/٣ . وحول الزقزاق راجع : السخاوي ، **الضوء اللامع** ، ٥٩/٨-٦٠ ؛ الشلي، **المصدر السابق** .

٤٢- الجزيري ، **المصدر نفسه** .

السلطان راشد في مواجهة القوى الكبرى

- في مواجهة الهرموزيين والبرتغاليين
- في مواجهة العثمانيين
- السلطان راشد بن مغامس ينتزع القطيف
- الحواشي والتعليقات

- في مواجهة الهرموزيين والبرتغاليين

بتولي السلطان راشد بن مغامس، حكم إمارة آل شبيب عند بداية سنة ٩٣٤هـ/١٥٢٨م والتي تضم الآن البصرة والأحساء معاً، تكون تلك الإمارة، قد دخلت طوراً آخر من حياتها وتؤشر لدور سياسي هام سوف تلعبه في المنطقة .

والواقع أن الصفات القيادية المتميزة التي كان يتحلى بها سلطانها الجديد كانت معروفة عنه قبل توليه منصبه الجديد . فقد أشاد بها البرتغالي تينريرو Tinreiro، مبعوث دي مندوزا، قبطان هرموز، إلى ملك البرتغال والذي مر بالبصرة في طريقه إلى لشبونة، فقابله شخصياً، وهو سلطاناً (ملكا) على البصرة، وذلك في ايلول / سبتمبر، عام ١٥٢٨ (محرم ٩٣٥هـ)، وأعجب بقوة شخصيته، ورجاحة عقله، وسعة اطلاعه، ونوه بالاحترام الذي كان يحظى به بين زعماء القبائل على امتداد تخوم الفرات، حتى أن الرسائل التي زوده بها إليهم مكنته من الوصول بكل أمان إلى حلب عبر الصحراء [١] .

وإنه لمن الطبيعي، أن يسترعي السلطان راشد الاهتمام، ويلفت إليه الأنظار بشكل واسع، بل وأن يثير مخاوف بعض الزعامات والكيانات وخاصة المجاورة لأراضيه وذلك بتوليه السلطة .ولقد أشرنا إلى موقف الرئيس بدر الدين بن محمد شاه الفالي وزير البحرين منه إذ كان أسرع المتوجسين الذين ساورتهم المخاوف من السلطان راشد وذلك للصلات الوثيقة التي تربط البحرين والقطيف بالأحساء .

أما كريستوفاو دي مندروزا، قبطان هرموز فقد عبر من جهته عن مخاوفه من السلطان راشد بن مغامس الفضلي، وذلك في رسالته التي بعثها لملكه، وسبقت الإشارة إليها . فقد وصفه بأنه « ... مسلم ذو معرفة واسعة ودهاء، وقد تمكن بدهائه هذا من الاستيلاء على كل البلاد التي هي بحوزته، وأخشى أن تمتد يده إلى أراضي ملك هرموز المحاذية لأراضيه ... » [٢] .

وعلى أي حال، فإن السلطان راشداً كان قد تعرف جيداً على أحوال الخليج العربي وعلى الأهمية الاقتصادية للبحرين، وذلك أثناء إقامته الطويلة في تلك الجهات، وأدرك حاجته للقوة البحرية أكثر من ذي قبل . لذا فإنه حذا حذو السلطان الشهيد مقرن الجبري، وباشر بإنشاء تلك القوة مستفيداً من الكفاءات في ميدان البحرية التي بقيت في بلاد البحرين بدون عمل إثر تدمير البرتغاليين لأسطول السلطان مقرن إضافة لخبرة أهل الأحساء، بأمور البحر، واستخدام الحرفيين من الترك في ميدان النجارة وسلاح المدفعية والبنادق [٣]، والذين جاء بهم، على الأغلب من الحجاز . لكن هذا العمل من جانب السلطان راشد، أكد مخاوف الهرامزة والبرتغاليين على حد سواء مما يضمره راشد من نوايا وأهداف . فسياسة البرتغاليين في الخليج لاتختلف عن مثيلاتها من دول الاستعمار الأوربي التي أعقبتها، فهي تسعى بشكل دائم إلى إبقاء سكان المنطقة في حالة ضعف، وذلك بمنعهم من بناء قواهم الذاتية على الأصعدة كافة، وخاصة في ميدان القوة البحرية وامتلاك السلاح الناري، والذي أخذ في الظهور والانتشار حديثاً . ومن هذا المنطلق بادر مندوزا قبطان هرموز، في أواخر صيف ١٥٢٨ بإرسال رسالة تهديد إلى السلطان راشد بن مغامس، مطالباً إياه بتسليم مابحوزته من سفن وأسلحة نارية، إضافة الى الجنود الروم (الترك)، الذين كان يستخدمهم . فحاول السلطان راشد من جانبه تهدئة مخاوف البرتغاليين وكسب ثقتهم، لكنه فشل أمام إصرارهم وغطرستهم، الأمر الذي أدى إلى إثارة نزاع فيما بينهما، استمر بضع سنوات، من دون أن يخضع سلطان آل شبيب للضغوط العسكرية، والاقتصادية البرتغالية التي مارسوها ضده بل وقف بصلابة في مواجهتها[٤] .

ومن الجدير بالذكر، أن فشل البرتغاليين في إخضاع السلطان راشد لمشيئتهم، رافقه فشل آخر أكبر من سابقه، وشكل كارثة عليهم، وذلك حينما عجزوا عن انتزاع البحرين من الرئيس بدر الدين الفالي وإحلال حاكم آخر بدلاً عنه [٥].. وذلك في أعقاب اعتقالهم لابن عمه وصهره الرئيس شرف الدين لطف الله الفالي. ولابد أن تكون هذه النكسات التي

أصابت البرتغاليين سنة ١٥٢٩م، هي فرصة مناسبة عسكريا لكي يتحرك السلطان راشد أو ولده مانع حاكم الأحساء، نحو القطيف التي كانوا يتطلعون - ولاشك - إلى انتزاعها مع البحرين، لكنهما، فيما يبدو، فضلا التريث لوقت آخر أكثر ملائمة . على أنه من المحتمل أن الضغط المتواصل الذي كان يمارسه آل صبيح، من بني خالد، على القطيف، وهجماتهم المتكررة عليها[٦] كان يتم بتحريض غير مباشر منهما .

ومن الجدير بالذكر أن الذين كانوا يتولون أمر الدفاع عن القطيف بشكل رئيسي، في هذه الأثناء، ويتصدون لهجمات بني خالد (آل صبيح)، هم بنو جبر أنفسهم بقيادة الشيخ فضيل الزامل الجبري [٧] . على أن هذا الحدث ذاته يمثل أقدم إشارة وجدناها تخص استقرار بني خالد في المنطقة، إضافة إلى استمرار الجبور أيضاً، كقيادة مستقلة وقوة نشطة، تمارس دوراً سياسياً وعسكرياً مؤثراً في المنطقة .

وعلى أي حال، فالسلطان راشد وولده الشيخ مانع شُغلا عن أمر القطيف لفترة طويلة نسبياً بما هو أدهى وأمر، ذلكم أن حلفاء الأمس، وهم بنو خالد وبنو لام، قد توترت العلاقات معهما، لأسباب نجهلها، لينتهي الأمر إلى صدامات متكررة بينهما .

ولعل الوثيقة الهرموزية كانت تشير إلى بعض وقائع هذا الصدام، حينما ذكرت أن هاتين القبيلتين قامتا في أوائل سنة ٩٤١هـ / أوائل صيف ١٥٣٤م، بمهاجمة قافلة الحج الأحسائي التي كان يقودها الشيخ مانع بن راشد الفضلي، وهي في طريق عودتها إلى الأحساء . ولعل هذا قد حدث بعد انفصالها عن قافلة الحج البصري، فنهبوا منها أموالاً طائلة [٨]، مما حمل السلطان راشد وولده الشيخ مانع على القيام بمحاربتهما [٩] من دون أن نعرف نتائج هذا الغزو .

ثم أن هناك هاجساً أكبر شغل به آل شبيب، عن أي أمر آخر، ذلكم هو استيلاء السلطان العثماني سليمان القانوني على بغداد في شتاء عام ٩٤١هـ ١٥٣٤م وطرده

للصفويين منها [١٠]. والأكثر من ذلك هو تلقي السلطان راشد رسالة تهديد من إبراهيم باشا، الصدر الأعظم، بعثها إليه وهو في بغداد [١١] .

- في مواجهة العثمانيين

إن امتداد الوجود العثماني إلى بغداد، واقترابه من البصرة وشواطىء الخليج العربي، قد أضاف عنصراً جديداً لما يتهدد إمارة آل شبيب على وجه الخصوص، وبعداً آخر للصراع في المنطقة، مما سيتولد عنه، لاحقاً، آثار خطيرة في أوضاعها . وقد أدرك السلطان راشد الموقف الدقيق الذي أصبح هو فيه، والاحتمالات الخطيرة التي قد تتولد عنه وتعرض ملكه للخطر، لذا سارع إلى إيفاد ولده مانع ووزيره محمد إلى بغداد، حاملين الهدايا الثمينة والتهاني الحارة للسلطان العثماني وكبار رجال دولته وناقلين إليهم مشاعر الخضوع والولاء من سيدهم حاكم البصرة [١٢] .

والواقع، أن السلطان راشد لم يكن يسعى من خلال سفارته إلى بغداد إلى التقرب من العثمانيين فحسب، بل والتعرف أيضاً على أهدافهم ونواياهم تجاهه وتجاه البصرة . ولربما فكر راشد أبعد من هذا، وهو استغلال وجودهم، فيما إذا اطمئن إلى هذا الوجود، من أجل ابتزاز البرتغاليين، الذين سيتجهون حتماً إلى التقرب منه، لكي يبقى حاجزاً بينهم وبين العثمانيين، وأن لايصطف مع الآخرين ضدهم .

وعلى أي حال، فانطباعات مبعوثي السلطان راشد إلى بغداد كانت مُطمئنة، فيما يبدو، وإذا ماكان السلطان العثماني يهدف من وراء احتلاله لبغداد هو الحصول على كميات كبيرة من التوابل بحيث يؤدي ذلك إلى جعل عاصمته استنبول مركز العالم لتجارتها، كما قيل[١٣]، فإن ذلك الهدف لايتقاطع كثيراً مع مصالح السلطان راشد .

سارت السياسة العثمانية، - فيما بعد - أشواطا أبعد لتحقيق أطماعها، ووجد السلطان راشد نفسه مرغما على أن يكون له دور في بعض صفحاتها . فقد راح العثمانيون يخططون في إسطنبول لإرغام البرتغاليين على مشاطرتهم منافع تجارة المحيط الهندي . ومن أجل ذلك، باشروا ببناء أسطول ضخم في ميناء السويس، وأسندوا قيادته لسليمان باشا الخادم، ثم أمروه بالتوجه سنة ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م نحو سواحل الهند لضرب المواقع البرتغالية هناك وإيجاد حضور عثماني قوي في البحر العربي، إضافة إلى تأمين السيطرة على مدخل البحر الأحمر [١٤] .

والملفت للنظر أنه وسط هذه الأجواء من الاستعدادات العثمانية الكبيرة لمصادمة البرتغاليين، نجد أن والي بغداد يقوم بإرسال قوة عسكرية إلى الأطراف الشمالية لمملكة البصرة في العام نفسه (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) ويستولي على قلعة زكية (زجية)،[١٥] المتحكمة بطريق تجارتها النهرية مع بغداد وغرب إيران، الأمر الذي لم يولد مخاوف كبيرة، لدى السلطان راشد الفضلي فحسب بل ولدى الصفويين و البرتغاليين على حد سواء،[١٦] وذلك من النوايا العثمانية الكامنة خلف هذا العمل . لذا فإن السلطان راشد سارع بإيفاد ولده مانع ووزيره محمد وكبير قضاته أبي الفضل بسفارة الى السلطان العثماني، حاملين إليه مفاتيح البصرة وهدايا ثمينة. فقابلوه صيف ذلك العام (٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) بمدينة أدرنة في تراقيا، إضافة إلى مقابلة عدد من كبار المسؤولين في الدولة العثمانية، وقد تمخضت تلك اللقاءات عن اعتراف متبادل بين السلطان العثماني وبين سلطان البصرة . فقد اعترف الأخير بتبعيته للسلطان سليمان القانوني، مقابل اعتراف السلطان به حاكماً على البصرة و(الأحساء) مدى الحياة، وأن تحترم حدود مملكته، ويمنع ولاة بغداد من انتهاكها، وأن يرث الحكم ولده مانع من بعده [١٧] .

والذي يعنينا من هذا الأمر كله، هو نقطة واحدة تتعلق بالصلة بين خطط العثمانيين في منازلة البرتغاليين وقيام والي بغداد بالتحرك العسكري نحو حدود البصرة، لينتهي الأمر أخيراً بقيام السلطان راشد بن مغامس بالاستيلاء على القطيف .

إن مانميل إليه هو أن القادة العثمانيين في إسطنبول، وهم في غمرة انشغالهم في التخطيط لانطلاقة أسطولهم من السويس، ودراسة السبل المؤدية لإلحاق الأذى بالبرتغاليين، لابد أن تكون قد برزت أمامهم أهمية البصرة والأحساء وإمكانية الاستفادة من موقعيهما في جهدهم العسكري هذا . لكن المسألة المهمة التي بحاجة إلى حل، هي في الكيفية التي يمكن بها تحقيق ذلك، خاصة بعد أن اقتنعوا بضرورة إشراك السلطان راشد الفضلي في ذلك الجهد وتنفيذ بعض صفحاته.

لذا اقتضى القرار أن يمارس ضده الضغط العسكري لكي يستجيب لما تطلبه منه إستنبول بتنفيذه . ووفق هذا التصور الذي نراه، انتهى الأمر بالإيعاز إلى والي بغداد لكي يقوم بتلك الخطوة، وهي ممارسة الضغط والتخويف ضده والتي حققت نجاحاً، كما أشرنا .

ولكن يبقى سؤال آخر مهم يتعلق بطبيعة العمل الذي كلف السلطان راشد القيام به ؟ يبدو لنا أن ذلك كان الاستيلاء على القطيف والبحرين، لأنهما الهدف الأقرب إليه، وإذا ماأنجز فإنه سيولد، دون شك، اضطرابا لدى البرتغاليين ويثير مخاوفهم، ويخدم بالتالي بعض مقاصد العثمانيين، إضافة الى توافقه مع تطلعات الشيخ راشد نفسه وإمكاناته العسكرية .

- السلطان راشد بن مغامس ينتزع القطيف

إن تسوية الأمر، وفق مابيناه، بين القيادتين في إسطنبول والبصرة قد أعطى ثمارة، فقد عزز من جهة مكانة السلطان راشد بن مغامس في المنطقة باعتباره مدعوماً الآن من أقوى حكام الأرض في عصره، ألا وهو السلطان سليمان القانوني، كما أنه من جهة أخرى أعطاه العزم أكثر لكي يباشر العمل الذي يطمح إليه، وهو ضم القطيف، بل ولربما البحرين أيضاً، مما سوف يؤدي إلى زيادة قوته ونفوذه في شمال الخليج العربي .

ويبدو أن بدر الدين الفالي، وزير البحرين، كان يدرك ماكان يجول برأس السلطان راشد من أفكار وخطط، وذلك حينما قال في رسالته إلى ملك البرتغال : إن الشيخ راشد يجد نفسه الآن أمام فرصة مواتية للإستيلاء على القطيف، نظرا لاضطراب أوضاع البرتغاليين في الهند، إذ ليس بمقدورهم المجيء إلى الخليج للنجدة إضافة إلى أنه يدرك بأن ملك هرموز أعجز من أن يتحرك للوقوف في وجهه ومقاومته.(١٨)

وعلى أية حال، زحف السلطان راشد من البصرة باتجاه القطيف، في أواخر سنة ٩٤٥هـ/١٥٣٨م، وهو يقود جيشا كبيرا ضم في صفوفه حوالي ألفين من رماة البنادق من عرب وروم (ترك) فوجد ترحيبا من سكانها وعلى رأسهم وزيرها، الذي هو من أمراء الجبور، على أكثر تقدير، ففُتحت له أبواب القطيف، ودخلها دون أدنى مقاومة .(١٩)

والواقع أن الترحيب الذي لقيه السلطان راشد من قبل أهل القطيف، وحاكمها، يعكس دون شك، مدى الكراهية التي يكنونها تجاه المتسلطين عليهم من الفرس الفاليين. وقد اعترف حاكم البحرين نفسه بتلك المشاعر وذلك حينما قال :« إن العرب يرون أن من حقهم وحدهم حكم بلادهم »(٢٠) .

ويمكن أن يضاف هنا إلى أن أهل القطيف وخاصة الفلاحون منهم، كانوا يعانون الأمرين من ضغط آل صبيح، إحدى فصائل بني خالد ، وهجماتهم المتكررة على بساتينهم(٢١) خاصة عند نضج محصول النخيل في منتصف الصيف وجنيه في أواخره، والذي يتزامن أيضا مع موسم الغوص وصيد الأسماك، الأمر الذي حملهم على أن ينظروا إلى السلطان راشد الفضلي على أنه الزعيم المؤهل للذود عن حياضهم، والقضاء على أسباب مخاوفهم من آل صبيح، خصوصا وأنه الآن في عداء شديد مع بني خالد .

ويجدر التنويه هنا، إلى أن بني جبر، الذين كانوا قد سهلوا للسلطان راشد بن مغامس الفضلي أمر الاستيلاء على الأحساء قبل مايزيد على عشر سنين، قاموا الآن بنفس العمل تجاه القطيف، حيث سهلوا له أمر الاستيلاء عليها .

وعلى أي حال، فإن بدر الدين الفالي ، يُحمّل أحمد بن راشد المسقطي، العُماني الاصل، والوزير الأول في مملكة هرموز (٩٤٠ - ٩٤٧هـ / ١٥٣٣ م - ١٥٤٠م)، مسؤولية ما آل إليه أمر القطيف، نظراً لقيامه بتعين وزيرٍ عربيٍ عليها، وعزل الوزير الفارسي عنها، والذي تعاطف بدوره مع أبناء جلدته وفتح لهم أبوابها، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يصمد ويقاوم معتمداً على مناعة أسوارها.(٢٢)

ويبدو واضحا، أن وزير البحرين الفارسي، أراد استغلال حادثة سقوط القطيف لكي يدافع بشكل غير مباشر عن مدى اخلاص صهره الرئيس شرف الدين الفالي والذي أبعد إلى البرتغال وليثير بالتالي غضب ملك البرتغال ضد الوزير العربي أحمد المسقطي، الأمر الذي قد ينتهي بعزله عن منصبه ليفوز به من بعده شخص من أقاربه من "الحزب الفالي" إضافة إلى أن الرسالة نفسها، تطفح بمشاعر التعصب والكراهية السائدة في الخليج بين الزعامتين التجاريتين العربية والفارسية، والتي كثيرا ما أدت إلى استعداء المستعمر البرتغالي الجشع على بعضهم البعض ونزوعهم نحو التنافس على استرضائه، تحقيقا لمنافعهم الخاصة البعيدة عن كل القيم والاعتبارات .

ومما يجدر ذكره هنا، أن السلطان راشد بن مغامس الفضلي قد استحق الآن وليس قبلها لقب " سلطان البصرة والأحساء والقطيف " أو " سلطان الشرق "، وهو اللقب الذي اعتاد المؤرخ الجزيري أن يطلقه عليه (٢٣) .

إن الانتصار السهل الذي أحرزه السلطان راشد في حملته على القطيف، قد جعله أكثر ثقه بقدراته وأشد اندفاعاً لتحقيق كامل أهدافه وأمنياته، وعلى رأسها احتلال جزيرة البحرين وضمها إلى تاجه، حيث هي الآن على امتداد بصره وعلى بعد مرمى من القطيف، لكن البحرين تبدو، منذ الآن، وكأنها قد أصبحت عصيّة المنال على كلّ يدٍ تحاول أن تمتدّ إليها من شاطىء بلاد العرب لكي تعيدها إلى أحضان أمها التي حملت دائماً اسمها «بلاد البحرين» عبر مختلف العصور .

ومع هذا، فإن السلطان راشد كان عازماً على التوجه نحوها، بعد إتمام تحصين القطيف، والذي شرع في تنفيذه، حيث هدم قلعتها القديمة وباشر ببناء قلعة جديدة في موقع آخر .

حشد السلطان راشد قبالة جزيرة البحرين عدداً كبيراً من قواته في الوقت الذي أرسل لوزيرها بدر الدين الفالي رسالة تهديد مطالباً إياه بتسليم الجزيرة منعا لإراقة الدماء والرحيل بأمواله إلى أيه جهة شاء، وإلا سوف يرغمه على ذلك. لكن الوزير المذكور، رد عليه، وكما هو متوقعاً، برفض تهديده، ولوح له في المقابل بما سوف يقوم به ملك البرتغال تجاهه مستقبلا، والذي قال عنه : " سوف يهرع لنجدة البحرين حالما تسمح له ظروفه بذلك نظرا إلى أن البحرين، ليست تابعة لملك هرموز فحسب بل هي تحت حماية ملك البرتغال أيضا".(٢٤)

تفجر صراعٌ دامٍ مفاجىءٍ بين السلطان راشد وزعيم بني خالد أمير البادية، أثناء حصار البحرين من دون أن تعرف أسبابه، إلا أنه قد يكون مرتبطاً باستيلاء راشد على القطيف والذي سيحرم بني خالد من منافعها . وعلى أي حال استمر ذلك الصراع فترة من الوقت دون أن يحسم(٢٥) فكان نتيجته أن تبدد جهد السلطان راشد وانهكت قواه، وابتعد عن هدفه الذي كان يتطلع اليه .

وهكذا يكون بنو خالد قد أضاعوا على السلطان راشد فرصة تاريخية ثمينة ربما كان بالإمكان اهتبالها ليصحح وضعاً سياسياً واقتصادياً شاذاً أضر بتلك البلاد نتيجة لاستيلاء الهرموزيين على جزيرة البحرين سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م بإسناد من البرتغاليين، وانتزاعها من أحضان أمها بلاد البحرين .

اضطر السلطان راشد أخيراً إلى طي راياته والتوجه جريح النفس صوب البصرة، حاضرة مملكته ولعله كان يحس بدنو أجله، تاركا وراءه ولده مانع لمعالجة أوضاع الأحساء والقطيف المتوترة .

- الحواشي والتعليقات

١- Itinerarios de India a Portugal Por Terra, (Coimbra, 1923),111.

٢- As Gavetas da Torre de Tombo, Lisboa, 1965, Vol. V. No.35 46. p. 108-116, esp. 115-16.

٣- الحميدان ، الصراع على السلطة في دولة الجبور ، **المرجع السابق** .

٤- راجع تفصيل ذلك في بروش ، آسيا .

Barros, Da Asia, Dec. iv Liv. 111, Cap. x 111, P 331-40, Cap. xv, 346; Danvers, Op. cit, 1. 39; Sousa, Op. cit, 1,332-24;.

كذلك راجع . أحمد بوشرب ، «حملة برتغالية ضد البحرين» ، **الوثيقة** ، (البحرين) عدد خاص أبحاث مؤتمر البحرين عبر التاريخ ، البحرين ، ١٩٨٣م ، ١٢٨-١٣٢ ؛ اوزبران ، **المرجع السابق** ، ٢٣٢-٣٥ .

وحول سياسة البرتغاليين لتجريد منطقة الخليج العربي من السلاح ، راجع، الحميدان ، إمارة الجبور في نجد.. **المرجع السابق** ، ٨١ .

٥- Sousa, Op. Cit. 334-35.. ؛ نونوبي سلفا، الغزو البرتغالي للبحرين ، **الوثيقة** ، (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م) ٤/١٢٨-٢٩ ؛ بوشرب ، **المرجع السابق**، ١٢٨-١٢٩.

٦- الأرشيف البرتغالي ، **مجموعة الوثائق الشرقية** .٩٣ رقم ٩٣/

٧- **المصدر نفسه** .

٨- أشار الجزيري إلى تلك القافلة في حوادث سنة ٩٤٠هـ وذكر أن مبارك بن راشد هو قائدها ، مما يرجح أنه قد وقع تصحيف في هذا الاسم ولعل المقصود به هو مانع بن راشد ، حيث لم نعثرعلى ولد لراشد أو لأحد أفراد أسرته يحمل مثل هذا الاسم ، راجع ، **الدرر الفرائد** ، ٢/٨٤٠ ، ١٧٢٩/٣م.

٩- **الأرشيف الوطني البرتغالي** ، مجموعة **الوثائق الشرقية** ، وثيقة رقم ٩٣/No. 93.

١٠- **المصدر نفسه** ؛ نظمي زاده مرتضى أفندي ، **كلشن خلفا** ، ترجمه عن التركية موسى كاظم نورس ، بغداد ، ١٩٧١ ، ١٩٨-٢٠١ ؛ عباس العزاوي ، **العراق بين احتلالين** ، ١٩/٤-٤٠ ؛ راجع أيضا عبداللطيف الحميدان ، **تاريخ ولايتي بغداد والبصرة السياسي والاجتماعي ١٦٨٨-١٧٤٩م** .

A. N. AL-Humaidan, The Social and Politcal History of the Provinces of Baghdad and Basra from 1688-1749, unpublished Ph.D. Thesis, Manchester University 1975.2-10.

كذلك راجع اوزبران ، **المرجع السابق**، ٢٩.

١١- راجع : Topkapu Sarayi Arsivi E.5466

١٢- انظر **مصادر ومراجع الهامش** (٩ ، ١٠) .

١٣- Braudel, F. The Mediterranean and the Mediterranian World in the age of Philip II. Trans. From French, (London 1982) Vol.1., 546; Inalcik, H. "The Ottoman Economic Mind, ... etc." in Studies in the Economic History of the Middle East (ed.) M. Cook, London, 1970, PP 86-113, esp 93-4.

١٤- حول حملة سليمان باشا الخادم ، راجع، النهروالي ، **البرق اليماني في الفتح العثماني** ، ٧٠-٩٠ :

M. Yakub Mughul, "The Expedition of Suleman Pasha AL-Khadim to India, 1538, Journal. of the Regional Cultural Institute, (Tehran), 1969, vol. 2, No. 3, P. 146-151; H. Inalcik & D. Quataert, An Economic and Social History of the Ottoman Empire, Cambridge, 1994. 325-27.

١٥- **الأرشيف البرتغالي في لشبونة** ، مجموعة الوثائق الشرقية ، رقم ٣٨/ No.38. «رسالة بدر الدين وزير البحرين إلى ملك البرتغال» ؛ **محفوظات رئاسة الوزراء بأسطنبول** . تصنيف كبجي ، رقم ٢٠٨ في سنة ٩٤٥ هـ ؛ Basbakanlik Arsivi, Istanbul, Kapeci, No. 208 S. 132.;

Rustam Pasha, Die Osmanische Chronik (Leipzig 1923), P. 139-140.

١٦- E. Sanceau, D. Joan de Castro, London, 1975, P.107.

١٧- رستم باشا، **المصدر نفسه**؛ نصوحي مطرقجي، سليمان نامه، مخطوطة مكتبة الاركولوجي في طوبقبو سراي، بأسطنبول، رقم ٣٧٩ ، ورقة ٥٨ أ - ٥٨ ب؛ اوزبران ، المرجع نفسه، ٢٩-٣٠ .

١٨- **الأرشيف الوطني البرتغالي**، مجموعة الوثائق الشرقية، رقم ٣٨، «رسالة بدر الدين وزير البحرين إلى ملك البرتغال» .

١٩- **المصدر نفسه** .

٢٠- **المصدر نفسه** .

٢١- راجع ، **مجموعة الوثائق الشرقية** رقم ٤٤ / No.44

٢٢- **المصدر السابق**، (رسالة الرئيس بدر الدين وزير البحرين) .

٢٣- **الدرر الفرائد**، ٨٤٠/٣ ، ١٧٢٨/٣ .

٢٤- **مجموعة الوثائق الشرقية** ، (رسالة الرئيس بدر الدين ...) .

٢٥- **المصدر نفسه** .

صعود الشيخ مانع بن راشد للسلطة

- الشيخ مانع سلطانا على الأحساء والقطيف
- الشيخ مانع سلطانا على البصرة والأحساء والقطيف
- الحواشي والتعليقات

- مانع سلطانا على الأحساء والقطيف

لم تطل الحياة بالسلطان راشد بن مغامس الفضلي بعد أن غادر الأحساء، حيث يحتمل جداً أنه قد توفى قرابة سنة ٩٤٦هـ/١٥٣٩م، إذ لم نعثر على ذكر له بعد هذا التاريخ . كما يحتمل جداً أن وفاته كانت نتيجة لسقوطه قتيلا في إحدى معاركه مع بني خالد، خاصة وأن العداء المستحكم بينهما والاقتتال المتقطع كان قد بدأ قبلها بعدة سنوات، وهو سبق أن أشرنا إليه، وأن ذلك سوف يستمر بعدها لعدة قرون .

ومما تجدر الإشارة إليه والتعليق عليه هو أن الفاخري نقل رواية مفادها أن زعيم المنتفق المدعو راشد بن مغامس قتل على يد بني خالد أثناء استيلائهم على الأحساء حوالي سنة ١٠٨١ هـ (١٦٧٠م) [١]. إن مما يحمل على الشك في دقة هذه الرواية هو انه ليس للمنتفق في التاريخ المذكور على وجه الاطلاق زعيماً يحمل مثل هذا الاسم. إضافة إلى أن الاقتتال بين بني خالد والسلطان راشد بن مغامس الفضلي مؤسس إمارة آل فضل (المنتفق) في الأحساء والقطيف، كان قد بدأ بصورة متقطعة ويدور حول القطيف، مما يحملنا على وضع افتراض مغاير لافتراض الفاخري، وتاريخ مغاير لتاريخه، وهو ما أشرنا إليه أعلاه عند ذكر إحدى تلك المعارك قبل أن يختفي ذكره بقليل، ولعله الأقرب للصواب.

وعلى أي حال ترك السلطان راشد بن مغامس بوفاته إمارة كبيرة بل ودولة واسعة تمتد تخومها من شواطىء الفرات شمالاً حتى بلاد البحرين جنوباً، مروراً بشط العرب، ثم تتجه منها غرباً نحو بوادي البصرة والأحساء ونجد لتصل إلى اليمامة. فهي والحالة هذه محفوفة بالأخطار من كل الجوانب، الأمر الذي يتطلب قيادة قادرة على إدارة دفتها وتحمل أعبائها الثقيلة بجلد وصبر .

كان طبيعياً أن يتطلع الشيخ مانع بن راشد، وهو في الأحساء لأن يكون الوارث الجدير بملك والده العريض ويضع تاجه المتلألىء فوق جبينه، وبأن يحثَ السير نحو البصرة

تحف به جنوده وأتباعه من نجد والأحساء والقطيف، ليشكل حضوره هناك عاملاً فاعلاً للفوز بما يطمح له ويتطلع إليه، خاصة وأنه يمتلك السند القانوني الذي يؤهل لذلك، بعد أن كان قد منحه إياه سلطان المسلمين المهيب سليمان القانوني بن السلطان سليم ياوز (ت:٩٧٤هـ/١٥٦٦م).لكن الوصول لمثل هذا الطموح الكبير لابد من أخذ الأهبة له وتحقيق بعض متطلباته، ومنها أولاً الاطمئنان قبل كل شيء على أوضاع الأحساء والقطيف اللتين هما قاعدتيه الأساسيتين قبل أن يغادرهما إلى البصرة. لذا بادر إلى تجميد النزاع بينه وبين حاكم البحرين من جهة وإيقاف الصراع بينه وبين بني خالد من جهة أخرى[٢] . إلا أن الأخبار التي وصلته من البصرة وهو في هذا الموقف كانت مثيرة لقلقه إلى حد كبير، حيث تضمنت أن خلافة والده قد حسمت لصالح ابن عمه عثمان بن محمد بن مغامس، إذ ارتضى زعماء المنتفق بأن يكون شيخاً عليهم وأن ينصب سلطاناً على البصرة بمباركة وتأييد من أعيانها[٣] .

والواقع أن اختيار الشيخ عثمان بن الشيخ محمد سلطان البصرة السابق، جاء منسجماً مع المفاهيم القبلية نظراً لكبر سنه . كما يعني قناعة ذوي الشأن بالبصرة بضرورة تقسيم التركة الواسعة للسلطانين محمد وراشد بين ورثتهم من أبنائهم، بحيث تكون البصرة لأبناء محمد، والأحساء والقطيف لأبناء راشد، وهو ما كاد أن يتم في حياة الأخوين محمد وراشد لولا شدة معارضة الشيخ راشد مما حال دون تنفيذه، إلا أن الأمر عاد من جديد ليواجه الآن ولده مانع.

وعلى أي حال فمانع بن راشد لم يكن، فيما يبدو، يملك مؤهلات والده القيادية ولا المكانة الكبيرة التي كان يحظى بها في أوساط العامة وبين زعماء المنتفق، إضافة إلى أن له ميولا قوية نحو العثمانيين مما يثير مخاوف من الأضرار التي قد تلحق بتجارة البصرة في الخليج العربي .

ويبدو من خلال محتويات رسالة وزير البحرين، التي سبق ذكرها، أن كاتبها كان مطلعاً على دقائق الأحوال في إمارة آل شبيب، الأمر الذي قد يعزز ماذهبنا إليه. فقد جاء فيها:«أن

الشيخ مانع كان متغطرساً في مسلكه ومتعالياً في تصرفه، وهذه الصفات أخذت تبرز بشكل أكثر منذ اتصاله بكبار رجالات الدولة العثمانية في بغداد واسطنبول وأدرنه، وعلى رأسهم السلطان العثماني سليمان القانوني نفسه حيث قابلهم شخصيا فأجلّوه ورفعوا من شأنه » [٤] .

فهذه الصفات والتصرفات وطرق التعامل مع الآخرين وميوله ربما كانت من عوامل الرفض للشيخ مانع وإن لم تكن هي المرتكز الرئيس لذلك . على أن الشيخ مانع كانت له صفات قوة برزت من خلال سيرته فهو صلب العود وجلدٌ إزاء الشدائد والصعاب، مع قوة في التحمل والإصرار على العمل للوصول إلى أهدافه . لذا ليس غريباً أن نجده يحاول جاهداً إعادة اللحمة لإمارة آل شبيب دون أن يبخل بالتضحيات .

وفي خضم الأحداث تلك توفي حاكم البحرين الرئيس بدر الدين الفالي ، فسارع أخاه محمود لتولي السلطة خلفا له [٥] الأمر الذي جعل الشيخ مانع يدرك حاجة المذكور إلى فترة سلام لتثبت أقدامه في الحكم، فسعى إلى تخفيف التوتر القائم بينهما وتكليف وسيط لتسوية الخلافات فيما بينهم . فقام بتلك الوساطة المدعو سيد عبدالله، أحد كبار سادات الأحساء ووجهائها البارزين، حيث نجح في مسعاه إلى حد ما [٦] .

شغل الشيخ مانع في هذا الظرف بدعم وضعه المالي بعد أن أدرك بأنه لن يتمكن من تحقيق طموحاته إلاّ بالاعتماد على الإمكانات المتاحة في الأحساء والقطيف، مما يقتضي ترتيب أوضاعها المالية بشكل دقيق .

وبين أيدينا وثائق عثمانية ترقى إلى هذه الفترة تحتوي على أنظمة تفصيلية للضرائب والرسوم التي طبقت في هذه الفترة في منطقة القطيف، إضافة إلى وثائق أخرى تتضمن بعض الإشارات للوضع المالي في منطقة الأحساء . والوثائق المشار اليها تشابه مثيلاتها المطبقة بالبصرة خلال الفترة نفسها، وهي تشير بالتالي إلى ماكان يطبقه آل شبيب من أنظمة

وقوانين في تلك المناطق الخاضعة لسلطتهم، وتؤكد عنايتهم الشديدة بهذا الجانب .فنظام الضرائب وتنظيم السوق هو، دون شك، تعبير عن نظام دولة ومسار لعلاقات اجتماعية، وقد اعتمدها العثمانيون مع تغيير بسيط فيها، وذلك فور استيلائهم على المناطق المذكورة.(٧)

إن من بين القضايا الأخرى التي أعطاها الشيخ مانع جل اهتمامه أيضا، هو العمل على حشـد الطاقات العسـكرية المتاحة في بلاده، من دون الإعلان عما يبتغيه من ذلك. لذا فإنه حاول الاستفادة من دراية أهلها الواسعة بأمور البحر وامتلاكهم أعدادا كبيرة من السفن، والتي يعمل فيها حشدٌ كبير من البشر في فصول الصيف خاصة حيث مواسم صيد اللؤلؤ والاسماك والنقل التجاري بين موانىء الخليج . لكن تلك التدابير والإجراءات سواء المالية منها أو العسكرية سرعان مااصطدمت بمعارضة شديدة، وخلقت استياءً واسعاً لدى قطاع هام من السكان خاصة أصحاب المراكب وتجار اللؤلؤ والخيول . وبما أن العاملين في البحر شأنهم شأن أهل البادية إن ضامهم ضيم ظعنوا عن ديارهم إلى حيث يجدون سبل العيش والأمان، ذلك " لانهم يملكون الأرض ولاتمتلكهم"، على حد تعبير أحد شيوخ العرب.(٨) لذا فإنهم مالبثوا أن امتطوا مراكبهم، وحملوا أمتعتهم وأموالهم وعيالهم وأتباعهم، ولجأوا إلى البحرين،(٩) وربما لجأ البعض منهم الى مناطق أبعد من ذلك من مناطق الخليج . ومن الجدير بالذكر أن صور النزوح والشتات هذه كثيراً ما تكررت لدى سكان الخليج العربي عبر مختلف العصور والأزمان ولأسبابٍ متعددة .

والمهم في الأمر أن من بين هؤلاء النازحين أسر لها ثقلها المالي والاقتصادي الكبيرين، ليس في بلادها فحسب بل وفي عموم منطقة الخليج. حيث نجد من بينهم مثلا أسرة آل رحال، ذي الثروة الكبيرة والجاه العريض والشهرة الواسعة في تجارة اللؤلؤ، وعلى رأسها عميديها محمد بن رحال وحسين بن رحال.(١٠) وكذلك نجد عشيرة آل مُسلّم بزعامة شيخها القوي محمد بن سلطان بن مُسلّم،(١١) والذي نجد وصفا قيما له ولعشيرته في وثيقة عثمانية تعود لسنة ٩٦٢هـ/١٥٥٥ نستعرضها هنا، رغم أن ذلك قد يؤدي إلى

الاستطراد، لكنه سيخدم بحثنا، حيث تصف تلك الوثيقة وضعاً كان سائداً أثناء تلك الفترة، حيث قالت عنه :" إن ابن مُسلّم شيخ لأتباع يقيمون بقطر ويمارسون نشاطهم في التجارة والنقل البحري، إذ هم جميعا من البحارة، حيث يمتلكون حوالي الألف سفينة مابين كبيرة وصغيرة، وإن رفاه تلك المنطقة مدين لنشاطهم هذا " (١٢). وتضيف الوثيقة أيضاً :" إلى أن آل مُسلّم وشيخهم محمد ذوي صلة وثيقة بالأحساء حيث ممتلكاتهم الواسعة هنالك"(١٣). ولعل هذا النص يفيد أيضاً بأن أول نواة سياسية لقطر الحديثة قد قامت على يد آل مُسلّم، مما يعني أن كيان قطر سبق في الظهور كيان الكويت بقرنين على وجه التقريب.

وعلى أي حال، تلقى الرئيس محمود الغالي، حاكم البحرين الجديد "الهدية" تلك بالبهجة والسرور، إدراكا منه بأنها سوف تؤدي إلى خسارة مادية كبيرة لخصمه حاكم الأحساء والقطيف وإضعافا لقدراته العسكرية، وخضداً لشوكته السياسية، في الوقت الذي سيؤدي وجود هؤلاء النازحين في بلاده إلى إنعاش لتجارتها وزيادة في ثروتها .

ومن الطبيعي أن نزوح هؤلاء قد سبب انتقاضا لخطط الشيخ مانع بن راشد، وولّد لديه إحباطاً كبيراً، فحاول يائسا تدارك الامر، وبعث برسالة تهديد إلى حاكم البحرين، وهو في القطيف على رأس قواته، يطالبه فيها بضرورة إعادة الفارين من بلاده . لكن الاخير، وكما كان متوقعا، لم يستجب لذلك الطلب(١٤). وإذا ماعلمنا أن الصراع والتنافس من أجل الحصول على الثروة البشرية المتميزة، كان موجودا في الماضي مثلما هو موجود في حاضرنا، لأدركنا مدى العداء والكراهية التي تصاعدت واتسع ميدانها بين الحاكمين. وهنا نجد أمامنا سؤالاً يتصل بمدى صحة ماادعاه الوزير الأول لمملكة هرمز في رسالته التي سبق ذكرها، من أن الشيخ مانع كان يقوم بحشد السفن لغرض غزو البحرين ؟(١٥) . الجواب على هذا السؤال سيعتمد على وثيقة هرموزية معاصرة وعلى استقراء لتطلعات الشيخ مانع نفسه .

فقد تحدثت الوثيقة المشار إليها عن فرار رعايا الشيخ مانع إلى البحرين، وعزت ذلك إلى المظالم التي كانوا يتعرضون لها على يدي الأخير، فكان أن أدى فرارهم إلى وقوع نزاع بين مانع ووزير البحرين، من دون أن تذكر تلك الوثيقة وجود تصميم لدى مانع على غزو البحرين، وإنما أشارت إلى وجود أمنيات لديه فحسب .

وهنا نقتطف بعضاً من أسطر تلك الوثيقة التي لاتحمل تاريخا، إلاّ أنه من المرجح أنها قد كتبت اثناء تلك الفترة الحرجة :

" .. بعد فرار عرب آل رحال من ظلم شيخ العرب مانع بن راشد والتجائهم إلى البحرين ارتسمت في مخيلة الشيخ مانع فكرة الاستيلاء على البحرين بحجة استعادة سلطته على هؤلاء العرب الفارين، بعد أن وضعهم محمود وزير البحرين تحت حمايته. لكن شيخ العرب سرعان ماتراجع عن خطته وعدل عن محاربة وزير البحرين بعد أن أدرك أن المصلحة تقتضي ذلك في الوقت الحاضر . لذا فإنه رحل من البحرين وعاد الى الأحساء من دون أن يتم الصلح بين الطرفين "[١٦] .

فالهاجس المسيطر على الشيخ مانع في هذه الأثناء لم يكن البحرين، بل هو الاستيلاء على البصرة، إذ قد يكون قد خطط لذلك لكي يفاجئها بهجوم من جهة لاتتوقعه، وهو طريق البحر والنهر . بل ولربما كان توقيته لمثل تلك العملية قد حسب بدقة لكي تحقق نجاحا في أسلوب المباغته، وهو أن يتزامن إبحار سفنه مع دخول أعداد كبيرة من السفن إلى شط العرب لنقل تمور البصرة .

ويمكن أن يضاف إلى ذلك أن من مزايا تلك الحملة البحرية، إذا مانفذت، هو تحاشيها المقاومة البرية القوية إضافة إلى متاعب الطريق الصحراوي . ووفق هذا التصور فإن الشيخ مانع سعى لكي يزج بسفن بلاده في تلك الحملة، دون الكشف عن نواياه واتجاهاته، الأمر الذي أثار التكهنات حول مقاصده . وبما أن البحرين هي الأقرب إليه، لذا فإن ورودها

كهدف لذلك الحشد هو أمر متوقع، بل قد يكون الشيخ مانع نفسه هوالذي أشاع ذلك الخبر لإبعاد الأنظار عن هدفه الحقيقي .

- مانع سلطاناً على البصرة والأحساء والقطيف

إن الوقائع والأحداث التي واجهها الشيخ مانع، تمثل دون شك، فشلا ذريعا لسياسته ونواياه، وكان يفترض فيه أن يعيد النظر فيها، لكنه أدار ظهره وصمم على تنفيذ ماكان قد اعتزمه، فظعن من القطيف ويمم شطر البصرة [١٧] عله يحظى بالفـــوز بكافة آماله.

ومن الجدير بالذكر أن حملته التي كان يريد لها أن تكون مباغتة هي التي فقدت ذلك العنصر، فتعرضت لهجوم مباغت جوار البصرة، مما أدى إلى تمزيقها وإصابة الشيخ مانع نفسه بجروح بليغة حيث لم ينجُ إلا بشق الأنفس[١٨]. ومن غرائب الأقدار أنه لم يمض على اندحار الشيخ مانع وعودته خائبا إلى الأحساء، سوى فترة قصيرة حتى وافته الأنباء في أواخر عام ٩٤٩هـ /١٥٤٢م بوفاة الشيخ عثمان بن محمد الفضلي حاكم البصرة وتنصيب ابنه محمد خلفا له، رغم صغر سنه. فما كان من راشد إلاّ أن انتفض مجدداً ونسي كل ماعاناه من نكسات وماتحمله من متاعب، وأخذ في حشد أتباعه، وتنظيم صفوفهم بصورة أفضل من سابقها، ثم سار بهم يحث الخُطا نحو البصرة. وقد حالفه الحظ هذه المرة، وفتحت له البصرة أبوابها فور وصوله، فدخلها دون أدنى مقاومة، بل لقي استقبالا حاراً من أعيانها وكأنهم يقرون بأحقيته في حكمها الآن، حيث نُصِّب فوراً حاكما عليها.[١٩]

هكذا نجح الشيخ مانع بن راشد الفضلي في تحقيق حلمٍ طالما راوده وأمضى حوالي ثلاث سنوات وهو يكافح لكي يتوج على البصرة والأحساء والقطيف معاً، مثلما كان والده من قبل. لكن فرح السلطان مانع بفوزه هذا لم يدم طويلاً، إذ لم يهنأ بمنصبه، الجديد كما

كان يأمل . فتوحد إمارة آل شبيب تحت قيادته أثار حسد خصومه في الداخل مثلما أثار مخاوفهم في الخارج، وعلى الأخص أثرياء الأحساء والقطيف الذين لجؤوا الى البحرين حيث لم يعد يشغلهم شاغلا سوى التفكير بالانتقام منه . لذا وضعوا كل إمكاناتهم تحت تصرف حاكم البحرين محمود الفالي لكي يلحق الأذى بالشيخ مانع، والذي اختار أن تكون القطيف هدفاً له . فقام بهجوم مباغت استهدف السفن الراسية في القطيف، فأحرق منها مايقارب المائة وخمسين سفينة مابين كبيرة وصغيرة ،[20] مما ألحق ضررا كبيرا بأصحابها وبالنشاط التجاري لميناء القطيف .

ومن الطبيعي أن يثير هذا العدوان المبيّت ثائرة الشيخ مانع، ويسارع إلى الرد عليه، فأمر بالاستيلاء فورا على سفن أهل البحرين الراسية بالبصرة وشط العرب ومصادرة حمولتها [21]، مما يعني أن ميدان الصراع بين محمود الفالي ومانع الفضلي قد امتدّ إلى البصرة.

على أن المهم في الامر هو أن الإجراءات التي اتخذها الشيخ مانع ضد تجار البحرين لم تقابل، فيما يبدو، بارتياح في البصرة نفسها، وخاصة بين أوساط تجارها، حيث من المحتمل أن يكون بينهم عدد مؤثر من أصول أحسائية وقطيفية، فرأوا أن تلك التدابير سوف ينتج عنها ضررا بتجارة البصرة نفسها . هذا ومن جانب آخر استغلها معارضوه باتخاذها ذريعة لإثارة السخط والاستياء ضده .

وتعزو الوثيقة التي نستند إليها بهذا الخصوص، سبب الإطاحة بحكم الشيخ مانع إلى تلك التدابير التي كان قد اتخذها بحق تجار البحرين،[22] إلا أن هذا السبب الذي ذكر لايكفي لتفسير ماوقع للشيخ مانع لاحقا، إلاّ أنه مع هذا يعكس، دون شك، مدى التأثير الضار لتلك التدابير على النشاط التجاري بالبصرة وعلى مصالح تجارها بالذات، إضافة إلى أنه يكشف بوضوح عن الثقل السـياسي الذي يتمتع به التجار في البصرة، وخاصة من ذوي الأصول الأحسائية والقطيفية، والدور الكبير الذي استطاعوا أن يلعبوه في

الأوساط المختلفة، وفي خلق الأجواء التي ساعدت على الإطاحة بحكم الشيخ مانع .

والواقع فإنه يفترض أن يكون أشد المتربصين بالشيخ مانع، هم أكثرهم قرباً وطمعاً بالسلطة، مما يحتم أن يكون أبناء عمومته على رأس المتآمرين عليه، وأن أخطاء الشيخ مانع وهفواته في الحكم ساعدتهم على الاقتراب من مبتغاهم، حيث استغلوها لسواد صفحته وفرض عزلة شعبية واسعة حوله، تمهيدا للإطاحة به، من دون أن يثير ذلك أسف أحد عليه . وكأنهم يدركون بذلك المقولة السياسية المعاصرة التي تفيد بأنه لايكفي القضاء على عدوك فحسب، بل يجب عليك أن تلحق به العار أولا .

وعلى أي حال فالمعارضون نجحوا سريعاً في إرغام الشيخ مانع بن راشد على التخلي عن الحكم في البصرة، وذلك سنة ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م وهو لم يكمل عامه الأول فيه، وأن يقبل اقتسام المملكة مع أبناء عمه، حيث تكون الأحساء والقطيف من نصيبه . أما البصرة فتكون من نصيب ابن عمه يحيى بن محمد بن مغامس، والذي تم تنصيبه سلطانا عليها إثر ذلك، في حين عاد الشيخ مانع إلى الاحساء وهو يجر أذيال الخيبة ويتجرع مرارة الخسران [23] .

لم يؤد ماحدث إلى تعميق الخلاف بين الشيخ مانع وأبناء عمومته فحسب، بل إنه أدى إلى آثار عميقة من الكراهية والأحقاد والنزاعات داخل قبيلة المنتفق نفسها وبيت المشيخة فيها، والذي سوف يستمر لاحقا لفترة طويلة .

الحواشي والتعليقات -

١- الفاخري، المصدر السابق، ٧٥: تحفة المستفيد ، ١٣٣ .

٢- انظر (رسالة الرئيس بدر الدين وزير البحرين) .

٣- مما تجدر الإشارة إليه هو أن ابن عراق ، المصدر السابق ، ١١٤ ، ورستم باشا، الذي اعتمده اوزبران ، المرجع السابق، ٣٠ ، قد ذكرا بأن الشيخ مانع قد خلف والده مباشرة في حكم البصرة ، إلا أنهما اختلفا فيمن أعقب مانع .. فابن عراق ، يجعله عثمان بن محمد بن مفامس ، في حين رستم باشا يجعله يحيى بن مفامس، من دون ذكر لعثمان بن محمد .

وعلى أية حال ، فرسالة الرئيس ركن الدين الوزير الأول بهرموز ، والسالفة الذكر، هي الأكثر دقة وصحة، حيث ذكرت بأن عثمان ابن محمد خلف عمه راشد بن مفامس، لذا فمن الممكن الاطمئنان كثيراً لأقوال ركن الدين نظراً لأن الوقائع التي تلت ذلك تؤكد صحتها. راجع،(رسالة الرئيس ركن الدين وزير هرموز) المصدر السابق .

٤- راجع ، (رسالة الرئيس ركن الدين وزير هرموز) السابقة .

٥- الوثائق الشرقية ، رقم ٦٢ / No.62 (رسالة عماد الدين مراد الى الرئيس شرف الدين لطف الله) .

٦- بوشرب ، (رسالة من الرئيس ركن الدين الى الرئيس شرف الدين) المرجع السابق.

٧- M. M. ILHAN, The Katif District ... etc. Belleten, (1987) S. 200/81-98 ; Tapu def.1022. P.290-340.

٨- راجع ، حول مناسبة هذا القول في ابن سعيد الأندلسي (نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب)، تحقيق نصرة عبد الرحمن ، (عمان ، ١٩٨٢) ، ٨٤/١ .

٩- الوثائق الشرقية ، وثيقة رقم ٦٢/ .. (رسالة من عماد الدين الى الرئيس شرف الدين لطف الله) ؛ وكذلك راجع ، بوشرب ، (رسالة من الرئيس ركن الدين إلى الرئيس شرف الدين) المرجع السابق ، الصفحة ١٣٤ .

١٠- راجع ، مجموعة الوثائق الشرقية في لشبونة ، رقم ٤٤/٤٤ و ٨٧/ ٨٧ و ٨٨/٨٨ .

١١- بو شرب ، رسالة من الرئيس ركن الدين وزير هرموز إلى الرئيس شرف الدين ، المرجع السابق ، ١٣٣-١٣٥ . ؛ كذلك راجع الأصل البرتغالي المترجم في :

As Gavetas de Torre do Tombo, IV, No. 3284. P 358-59..

١٢- جنكيز اورهونللو (تقرير حول الحملة العثمانية على البحرين) سنة ١٥٥٩، ترجمة حسين الداقوقي عن التركية ، المرجع السابق .

١٣- المرجع نفسه .

١٤- بوشرب ، (رسالة الرئيس ركن الدين الى الرئيس شرف) ، المرجع السابق .

١٥- المرجع السابق .

١٦- إن تلك الوثيقة هي عبارة عن رسالة كتبها عماد الدين مراد من جرون في غرة جمادى الاخرة ، من دون ذكر السنة .راجع، مجموعة الوثائق الشرقية ، رقم ٦٢/ No.62. كذلك راجع ، جهانكير قائم مقامي ، بروسيهاي تاريخي، طهران ،(١٩٧٧) شمارة، ٧٤ - السنة الثانية عشر مجلد ١٢ ، ص٢٠٠ .

١٧- نفس المرجعين .

١٨- نفس المرجعين .

١٩- نفس المرجعين .

٢٠- نفس المرجعين .

٢١- نفس المرجعين .

٢٢- نفس المرجعين .

٢٣- نفس المرجعين .

سلطان الأحساء والقطيف في مواجهة البرتغاليين

- الشيخ مانع يستعين بالبرتغاليين
- احتلال الهرمزيون والبرتغاليون للقطيف
- الحواشي والتعليقات

- الشيخ مانع يستعين بالبرتغاليين

لم ينته التآمر على الشيخ مانع عند هذا الحد، بل لاحقه حتى وهو في الأحساء أيضاً. فما أن تولى ابن عمه يحيى بن محمد الفضلي، حكم البصرة، والذي وصف بأنه متحمس جداً لكسب صداقة البرتغاليين،[1] حتى بادر إلى إعادة سفن البحرينيين المصادرة إلى أصحابها وعوضهم عما فقدوه من مال وأضرار،[2] وكأن مبادرة أمير البصرة الجديد هي رسالة غير مباشرة لحاكم البحرين خاصة وللهرموزيين عامة، يعلن فيها تبرؤ أهل البصرة من أعمال أميرهم السابق الشيخ مانع، ومن تصرفاته، والذي لايزال وهو مقيم في الأحساء يمثل خطرا عليهم جميعا، مما يستوجب التعاون معها لمحاصرته هناك وفرض عزلة عليه .

وقد فهم حاكم البحرين سريعا تلك الرسالة، وحرص أمير البصرة الجديد على صداقته، فتجاوب معها وأجرى اتصالا بهذا الشأن مع قريبه الرئيس ركن الدين بهاء الدين الفالي، الوزير الأول لمملكة هرموز، ونقل اليه مخاوفه من احتمال تعرض بلاده للمخاطر نتيجة لعودة الشيخ مانع، الحاقد عليه، إلى الأحساء.[3] وكان طبيعي أن يتجاوب الرئيس الفالي مع قريبه حاكم البحرين، خاصة وأن البحرين نفسه قد غدت، في واقع الأمر، إقطاعية لأسرة الرؤوساء الفالية يتقاسمون منافعها وإيراداتها فيما بينهم، حيث يمتلكون قسما كبيرا من نخيلها ويسيطرون على معظم تجارتها.[4] كما أن الرئيس الفالي نفسه وجد في الخطر المزعوم الذي يمثله مانع، فرصة لكي يزج بالبرتغاليين في عمل قد ينتهي إلى إضعاف قبضتهم على مملكة هرموز، مما يتيح له الفرصة لكي يتدبر مصالحه ومصالح أسرته وأمر المملكة بعيدا عن ضغوطهم الشديدة .

ومن هذا المنطلق، بادر ركن الدين إلى التداول مع مرتينيو دي ميلو Martinho A. de Milo قبطان هرموز (١٥٤١ - ١٥٤٤م)، بشأن البحرين، واقترح عليه إرسال أسطول برتغالي ليرابط هناك أو القيام باحتلال القطيف وبناء قلعة فيها لتكون دعامة لأمن البحرين . لكن دي ميلو رفض ذلك، محتجا بأن الأعباء الكبيرة التي تثقل كاهل حكومته بالهند تحول دون ذلك ،[٥] واقترح بدلا من ذلك أن يقوم وزير البحرين نفسه بتجهيز مثل ذلك الأسطول، معتمداً على إمكاناته الذاتية وليستخدمه في احتلال القطيف، والتي سيكون حكمها بعدئذ خالصا له، ومن دون أن يطالب بالتزامات مالية تجاه سلطان هرموز. وقد تم تبني هذا الاقتراح في هرموز، وبعث كل من سلطانها وقبطانها برسائل إلى حاكم البحرين، كل على انفراد، يحثانه على العمل بهذا الاقتراح . لكن الحاكم المذكور محمود الفالي لم يتجاوب مع ماطلب منه، بالرغم من مغرياته المادية وحماس كل من محمد بن الرحال والشيخ محمد بن سلطان بن مسلم لتنفيذه، وذلك بوضع إمكاناتهم المادية الكبيرة تحت تصرفه.[٦] ويبدو أن وزير البحرين نظر إلى الامر من زاوية بعيدة، في ضوء تجارب تاريخية سابقة، وهي ضخامة المخاطر والخسائر الجسيمة التي يتوقع أن يواجهها في القطيف على المدى البعيد، إن لم تكن في حينه، بل والأكثر من ذلك أن يكون خلف ذلك الاقتراح نوايا برتغالية لانتزاع حكم البحرين منه الأمر الذي قد يؤدي الى زعزعة حكمه إن لم يكن إلى زواله .

على أي حال، فإن سلطان الأحساء والقطيف لم يكن بغافل، فيما يبدو عما يدور حوله ويحاك ضده، من أطراف عدة، فمراهنات هؤلاء الخصوم كانت على القوة البرتغالية، بعد أن أخذت معظم القيادات في الخليج تتنافس حول كسبهم إلى جانبها، فماعليه إلا أن يحذو حذوهم ويحمي كيانه، خاصة وأن القوة العثمانية، والتي كان يأمل منها الكثير، قد وقفت موقف المتفرج، منه في وقت كان يواجه فيه أصعب المواقف ويتجرع مرارة الهزائم والنكسات. وإذا ماكان هدف المتآمرين عليه، هو الاستيلاء على القطيف، فإن بإمكانه أن

يستخدمها هو نفسه ورقة لخلط أوراقهم وقلب خططهم. بل وقد يصل الأمر إلى أبعد من هذا، وهو استفزاز العثمانيين أنفسهم ودفعهم إلى خضم المعركة في الخليج العربي.

وفي ضوء هذا التوجه، بعث الشيخ مانع الفضلي برسالة مثيرة في شعبان سنة ٩٥١ هـ تشرين الثاني (.نوفبر ٥٤٤ م، إلى لويس فلكاو بريرا Luis Falcao Pereira، قبطان هرموز الجديد (١٥٤٤ - ١٥٤٧م) يعبر فيها عن رغبته في صداقة ملك البرتغال، وحرصه على توثيقها، واستعداده لتسليم القطيف إليه، على أن يأمل في المقابل أن يمده ملك البرتغال بالدعم العسكري المؤثر لكي يستطيع استرجاع عرشه الذي اغتصب منه بالبصرة[٧] .

أثارت تلك الرسالة وماانطوت عليه من أمر غير متوقع تماماً ردود فعل متباين في هرموز، حيث راوحت بين الحماس لعرضها والتردد في قبولها . ففي الوقت الذي استقبلها الحاكمون في هرموز بفرح غامر، إذ جاءت متطابقة مع تطلعاتهم في استعادة القطيف، نجد من الجهة الأخرى أن القادة البرتغاليين يصابون بالإرباك الشديد والحيرة . فاتفاقياتهم مع ملوك هرموز تلزمهم في الواقع بالدفاع عنها والمحافظة على أراضيها، وتعطي لزعماءها حق طلب تلك المساعدة.[٨] إلاّ أن هذا الطلب قد جاء في وقت لم يكن في حوزة البرتغاليين سوى قوة عسكرية صغيرة لايمكن توريطها في مثل هذه المغامرة التي قد تكلفهم الكثير وتعرضهم لمساءلة رؤسائهم في الهند، إن لم يكن معاقبتهم . لذا فإن قبطان هرموز رأى أن أفضل طريق يمكن أن يسلكه للتعامل مع هذا الموقف المحرج هو بالتريث والمماطلة. ومن هذا المنطلق فإنه قام بإرسال مبعوث برتغالي إلى الشيخ مانع، حاملاً إليه ردّ القبطان على رسالته، إضافة إلى تكليفه بجمع المعلومات العسكرية عن المنطقة. فقام ذلك المبعوث البرتغالي بالتوجه نحو الأحساء وقابل الشيخ مانع هناك، حيث عرض عليه شخصياً الشروط التي يراها القبطان لدعمه عسكرياً من أجل استعادة عرشه . وكانت تلك الشروط تتلخص في فقرتين رئيستين. أولاهما: ضرورة تسليم القطيف قبل الشروع بتقديم الدعم

العسكري المطلوب، وثانيهما : أن يتعهد الشيخ مانع بدفع مبلغ معين من المال في كل عام إلى خزانة مملكة هرموز، بعد استعادة عرشه.[٩] ومن الواضح أن الشروط التعجيزية التي تضمنها رد القبطان أريد بها التملص من الموقف الذي وضعه فيه الشيخ مانع عندما بعث إليه بتلك الرسالة، لأنه يدرك سلفاً بأن مانع سوف لن يقبل بها . كما قد يكون القبطان استهدف من إرسال مبعوث برتغالي هو لغرض استكشاف دوافع الشيخ مانع الحقيقية من رسالته تلك . على أن مانجهله هو رد الشيخ مانع على تلك الشروط، لكن من المتوقع أنها اتسمت بالحذر لإخفاء حقيقة ماكان يضمره .

ولعل من المفيد إيراد بعض مما انطوت عليه رسالة القبطان إلى ملك البرتغال، خاصة وأن تلك الرسالة لاتزال مخطوطة، إذ لم تظهر في المجموعات الوثائقية البرتغالية المنشورة، وهي مؤرخة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٤٤م (ذو القعدة : ٩٥١ هـ). إذ يقول قبطان هرموز فيها:

" ... وصلتني قبل بضعة أيام رسالة من ملك الأحساء [الشيخ مانع] يعبر فيها عن رغبته في صداقة مولاي، ويبين بأنه لم يقم بالاستيلاء على القطيف إلاّ من أجل تسليمها إليه، ويطلب أن يحظى من مولاي بالدعم والمساعدة ضد البصرة لأنه كان ملكها الشرعي، إلا أنها انتزعت منه بالقوة . فقمت بالرد على رسالته، والتي حملها إليه مبعوث برتغالي، حيث تضمنت الاشتراط عليه بتسليم القطيف قبل كل شيء، لكونها دوماً تابعة لمملكة هرموز، وإذا مافعل ذلك عندها سوف ينال مساعدة مولاي ضد ملك البصرة لأنه أحق منه بالملك .ثم إذا تم تحقيق ذلك فعليه الالتزام بدفع مبلغ من المال كل عام لخزينة مولاي، لأن من يدفع لملكنا أكثر سينال صداقته، خاصة وأن جلالته لايستفيد أبداً الآن من ملك البصرة"[١٠] .

وهنا يجدر الانتباه لفقرة أخرى هامة تضمنتها رسالة القبطان ،إذ تشير إلى حرصه الشديد في الحصول على أكبر قدر ممكن من ايرادات خزينة هرموز ، الأمر الذي يقتضي

السعي من اجل الحصول على جزء من ايرادات البحرين . فوزيرها لايدفع شيئاً لخزينة هرموز منذ أكثر من عشرة سنوات ، بالرغم من عقد اتفاق معه بهذا الخصوص . لذا فمن المحتمل أن رسالة الشيخ مانع قد أوحت له إمكانية اتخاذ القطيف، فيما لو استرجعت من الشيخ مانع ، كقاعدة يمارس منها الضغط لضمان الحصول بانتظام على جزء من إيرادات البحرين، بل وحتى إمكانية رفع يد أسرة الفالي عنها ، خصوصا أن هناك العديد من الأشخاص الذين أبدوا استعدادهم لذلك فيما لو أعطيت لهم وزارة البحرين .

وعلى أية حال يبرزأمامنا سؤال حول مدى جدية الشيخ مانع في تنفيذ وعده بتسليم القطيف للبرتغاليين ؟.

والذي يبدو لنا أن الأمر مستبعد جداً ولايعدو أن يكون الهدف من وراء تحقيقه أمور ثلاثة، أولاها: منع حاكم البحرين من معاودة التعرض للقطيف أثناء انشغاله في حملة البصرة المزمع أن يقوم بها بدعم برتغالي، بل والأكثر من ذلك إثارة مخاوف ذلك الحاكم من أن يهيأ ذلك فرصة للبرتغاليين وملك هرموز من انتزاع البحرين منه .

وثانيها : دق إسفين في العلاقة بين البرتغاليين والشيخ يحيى أمير البصرة، والذي راهن على صداقته للبرتغاليين.

وثالثها : استفزاز العثمانيين، مما قد يدفع بهم الى الحضور بثقلهم إلى البصرة، وهو ماسوف يخلق بالتالي وضعا جديداً في الخليج سيكون الشيخ يحيى هو الخاسر فيه بالتأكيد، في حين أن القوتين الكبيرين البرتغالية والعثمانية سوف تتنافسان على كسبه شخصياً إلى جانبها.

وأخيراً لابد أن الشيخ مانع قد فكر في إمكان التنصل من الاتفاق مع البرتغاليين حول تسليمهم القطيف، مثلما تنصل والده من اتفاقه معهم حول تسليم سفنه إليهم، قبل مايزيد على خمسة عشر عاماً.[١١]

وعلى أي حال فهذه الأفكار والتطلعات، التي إن صح أنها راودت مخيلة أمير

الأحساء والقطيف، فإنها تحمل في طياتها، دون شك، درجة كبيرة من المغامرة والمراهنة، والتي قد تنتهي إلى خسارته هو نفسه أكثر من غيره، فتكون سيرته عندئذ سلسلة متصلة من الفشل والإحباط .

- احتلال الهرمزيون والبرتغاليون للقطيف

لم يمض على الاتصالات التي جرت بين الشيخ مانع بن راشد ولويس فلكاو قبطان هرموز، سوى فترة قصيرة، حتى وصلت إلى علم البرتغاليين أخبار مفزعة، مفادها أن هناك استعدادات عثمانية بحرية واسعة تجري في السويس ربما هدفها إرسال أسطولهم صوب مياه الخليج العربي.[١٢] ومن الطبيعي أن تثير تلك الاخبار مخاوف البرتغاليين الموجودين في هرموز أكثر من الموجودين في مكان آخر، إذ لم يكن في هرموز سوى قوة صغيرة غير قادرة على التصدي لهجوم عثماني كبير متوقع . لذا فإن لويس فلكاو، سارع إلى طلب الإمدادات والدعم العسكري من مرتين دو سوزا Martin Afonso de Sousa حاكم الهند البرتغالية (١٥٤٢ -١٥٤٥م)، والذي استجاب سريعا لهذا الطلب، فأرسل تعزيزات بحرية يقودها برنالدين دو سوزا Bernaldim de Sousa . وما إن وصلت تلك القوة إلى هرموز في نيسان (ابريل) ١٥٤٥ م، (صفر٩٥٢هـ)، حتى أعقبها بقليل وصول أخبار أخرى، مفادها أن الهدف الحقيقي للأسطول العثماني سيكون اليمن[١٣] وذلك لدعم وجودهم المهتز هناك ،[١٤] وأنه لن يخرج من البحر الأحمر. عندها تحرر القادة البرتغاليين في هرموز من مخاوفهم فاهتبلوها فرصة للبحث عن غنيمة دسمة كعادتهم باستغلال القوة البحرية التي تحت إمرتهم. فكان أن طرح عليهم موضوع غزو القطيف، والذي يلح عليه دائما القادة الهرمزيون . وهنا وجد القادة البرتغاليين من جهتهم، أن المخاطر المتوقعة من هذا المشروع هي غير كبيرة، في حين أن مغرياته المادية كثيرة،

خاصة وأن سلطان هرموز ووزيره سوف يمولان الحملة، لذا فإنهم تحمسوا لذلك وحزموا أمرهم على القيام بها .

يتحدث برنالدين دوسوزا عن هذه القضية في رسالته إلى ملك البرتغال، والمؤرخة في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٥٤٥م (١٥ رمضان ٩٥٢ هـ) بقوله : "أخبرني لويس فلكان أنه قبل مضي ست سنوات انتزع الشيخ مانع Mana ملك الأحساء، مدينة القطيف وقلعتها من مملكة هرموز، وأنه منذ ذلك الوقت وحتى الآن، يطالب ملك هرموز ووزيره، القباطنة السابقين لهرموز، كما يطالبونه أيضاً، بتقديم العون اللازم لاسترجاعها، وذلك طبقا لما نحن ملزمون به اتجاه كل الأراضي التابعة لملك هرموز، وليس لقلعة هرموز فحسب . وإذا ماكان القباطنة السابقون يتملصون باستمرار من هذا الطلب متذرعين بعدم توفر القوة الكافية للذهاب إلى هناك، فإنه يتعذر عليّ الآن التذرع بمثل هذا الأمر، نظرا لوجود عدد كاف من الجنود تحت إمرتي والذين لم تعد لهم من حاجة، خاصة وأن الاتراك تأكد عدم مجيئهم إلى هنا. وفضلاً عن ذلك فإن كافة مصاريف الحملة سوف يتحملها ملك هرموز ووزيره . وفي ضوء ذلك فإني اقتنعت بأنه من الأفيد الذهاب إلى هناك، لأنه سوف يعطينا اعتباراً، من دون أن يعرضنا لأدنى مغامره، بل لايعدو أن يكون الامر سوى إشغالا لجنودنا، عوضا عن إبقائهم خاملين في هرموز.[١٥]

ضمت الحملة التي أعدت لغزو القطيف، كما تذكر الرسالة، مائتي برتغالي بقيادة دي سوزا، وحوالي سبعة آلاف من الفرس والعرب بقيادة الرئيس نور الدين بن شرف الدين الفالي. وقد غادرت هرموز وتوقفت قليلا في البحرين ثم رست عند شاطىء القطيف ليلاً، وذلك في شهر رجب من عام ٩٥٢هـ /أيلول (سبتمبر) ١٥٤٥م، فواجهتها القوة المرابطة هناك، والتي ربما بالغ المصدر البرتغالي بتقدير عددها بثلاثة آلاف مقاتل، بمقاومة شديدة بمختلف الاسلحة، وأوقعت بها خسائر مؤثرة، إلا أن تلك القوة المدافعة اضطرت على الانسحاب من المدينة بعد قتال شديد ومنهك استغرق أربعة أيام، وذلك حينما شعروا بأن المهاجمين أخذوا في التسلل إلى داخلها من خلال الثغرات التي أحدثوها في أجزاء من

سورها الحصين بمدفعيتهم الثقيلة.

ويبدو أن ذلك الهجوم كان مباغتاً من جانب المهاجمين ومفاجئاً للشيخ مانع بن راشد، والذي ربما كانت اتصالاته الأخيرة مع البرتغاليين قد أثرت فيه، فجعلته يستكين ويطمئن من جانبهم . لذا فإنه ما أن علم بالأمر حتى حشد قواته على جناح السرعة، وسارع يحث الخطا نحو القطيف . وحينما علمت القوة البرتغالية باقتراب الشيخ مانع من القطيف وهو يقود قوة كبيرة، سارعت بالانسحاب مخلفة وراءها القوة الهرموزية بقيادة الرئيس نور الدين الفالي.[١٦] وما إن وصل الشيخ مانع بن راشد إلى مشارف القطيف حتى أسقط بيده حين علم بوقوعها بأيدي الغزاة.

وهنا أمامنا موقف مثير للاستغراب والتساؤل حول توقف الشيخ مانع عن مهاجمة القوات الغازية التي احتلت القطيف أو مضايقتها، حيث كر راجعاً بقواته من حيث أتى[١٧] بل الأكثر من ذلك، أننا لانعرف فيما إذا كان قد قام فيما بعد، بعمل عسكري ضدهم.

إن هناك تفسيرين محتملين لهذا الموقف، أولاهما : إصابة الشيخ مانع بمرض اشتد عليه وجعله يشعر بدنو أجله وهو عند مشارف القطيف، فشغل بنفسه مثلما شغل اتباعه عن أي أمر آخر، فعاد أدراجه إلى الأحساء حيث فارق الحياة بعد فترة قصيرة . ولعل مما يؤيد ذلك هو أننا لم نعد نجد للشيخ مانع من ذكر أبداً بعد هذا الحدث.

وثانيهما : أن الشيخ مانع، ربما وجد نفسه أثناء ذلك، أنه يقترب من تحقيق تطلعاته في ايجاد فرصة للتعاون مع البرتغاليين، وما عليه سوى التريث قليلاً والامتناع عن القيام بمهاجمة القوة الغازية ومحاولة انتزاع القطيف من اياديها بالقوة، إذ هي العقبة التي كانت تحول دون ذلك التعاون . لذا فإنه بقي يتوقع مفاتحة قبطان هرموز له في موضع انتزاع البصرة من الشيخ يحيى الفضلي، تنفيذاً للشروط التي سبق ذكرها، لكنه توفي، فيما يبدو، من دون أن يرى أثراً لما توقعه .

وعلى أي حال فإن الهرامزة والبرتغاليين ساروا منذ البداية في تنفيذ خططهم من دون

اكتراث بالشيخ مانع . فقد قام الرئيس نور الدين الفالي بتنصيب حاكم فارسي على القطيف، ووضع قوة عسكرية في قلعتها[١٨]، في حين قام لويس فلكاو بنقل تقرير عن أحداث القطيف إلى دي كاسترو D. Joao De Castro نائب ملك البرتغال الجديد في الهند (١٥٤٥ - ١٥٤٨م)، حيث تضمن اقتراحا بتحويل القطيف إلى قبطانية، أي وحدة إدارية برتغالية مستقلة بشؤونها، أي على قدم المساواة مع مثيلتها قبطانية هرموز.[١٩]

فاقتراح فلكاو (فلكان) هذا ، قد يؤيد ماذهبنا اليه سابقاً ، من أن قبطان هرموز قد تولدت لديه فكرة انتزاع البحرين وإعطائه القطيف بدلاً عنها. أو أن يتخذ من القطيف قاعدة يمارس منها الضغط على حاكم البحرين لكي يسدد ماهو مقرر في كل عام جزءً من إيراداته لخزانة هرموز. اضافة إلى إتخاذ القطيف قاعدةً لتوفير الحماية العسكرية للجزيرة . إلاّ أن رفض نائب الملك لذلك الاقتراح قد أفشل نوايا وخطط قبطان هرموز، فنائب الملك كان لديه تصور آخر، ورد عليه بأنه من الأجدى للبرتغاليين أن تقتصر قلاعهم على عدد محدود جداً، تتركز فيها قوتهم القليلة وتوفر لهم النفقات الباهظة، بدلاً من نشرها في مناطق واسعة وتحمل الكثير من الأعباء والتكاليف. كما أن القطيف، من الجهة الأخرى، هي مجاورة للبصرة وأراضي الدولة العثمانية، ووجود البرتغاليين فيها سوف يستفزهم، مما يقتضي أن تكون القوة البرتغالية في حالة استنفار دائم خشية وقوع هجوم عثماني مباغت عليها.[٢٠]

خلاصة الأمر، أن الأحداث اللاحقة سوف تثبت بأن دي كاسترو لم يكن موفقاً فيما ذهب اليه، بل أن سياسته نفسها هي التي استفزت العثمانيين، وذلك حين فرض حصاراً تجارياً على البصرة إثر استيلائهم عليها. الأمر الذي دفع بالعثمانيين إلى العمل على فك الخناق عن البصرة. فكان أن احتلوا القطيف وهددوا البحرين مما أثار مخاوف شديدة ومستمرة لدى البرتغاليين في الخليج وجعلهم في حالة استنفار دائم .

- الحواشي والتعليقات

١- وثيقة رقم ٤٤ ورقم ٨٢ : المصدر السابق.

٢ - الوثائق الشرقية ، الوثيقتان السابقتان ٤٤ و ٨٢ .

٣- بوشرب ، (رسالة الرئيس ركن الدين إلى الرئيس شرف الدين) ، مرجع سابق.

٤- الرؤوساء الفاليون نسبة لمدينة فال (بال في كرامسيرات من بلاد فارس و التي في مواجهة ساحل بلاد البحرين ، وترتبط فال والتي هي في الداخل بساحل الخليج العربي عن طريق ميناء شيلاو ، الذي أخذ يطلق على ميناء سيراف القديم. ويسلك طريق شيلاو - فال - خنج القادمون من القطيف والمتجهين نحو شيراز او بالعكس. وقد ازدهرت الثقافة العربية وآدابها في فال منذ القرن السادس / الثاني عشر إضافة إلى كونها مركزاً لدراسة الفقه الشافعي في الخليج كما وأن عائلة الرؤساء كانت من أقوى البيوتات فيها منذ نهاية القرن التاسع / الخامس عشر، حيث تزعمت الجاليات الفارسية السنية في الخليج ، ومدت نفوذها السياسي والاقتصادي الى مملكة هرموز حتى غدت صاحبة السلطة الحقيقية فيه قبيل الفترة البرتغالية وخلالها . ومن الطبيعي أن مصالحها تتقاطع مع مصالح السلطة الصفوية في داخل إيران .

Jean Aubin, "La Survie de Shilau et la Route du Khunj-O-Fal " in Iran, (1969) VII; PP. 21-37.

وكان للفاليين مصالح اقتصادية ضخمة في البحرين ، كنتيجة طبيعة للعلاقة المتينة بين ميناء شيلاو والساحل العربي المقابل لها ، إضافة الى حركة النزوح المتبادل بين الساحلين. انظر :

Joao De Barros, Da Asia, Decada,IV,LIV,111,Cap.XV11,366.

5- كانت أوضاع البرتغاليين في الهند مرتبكة بعد الحملة التي قام بها العثمانيون والحملة المضادة والفاشلة التي قادها "داغاما" حاكم الهند في البحر الأحمر سنة ١٥٤١ ، راجع حولها .

E.Sanceu, "Uma Narrativ da Expedicao de 1541 ao Mar Roxo" in Stvadia, , 9(1962) P. 199-234.

٦- وثيقة رقم ٤٤/٤٤ ورقم ٨٢/٨٢ .

٧- الأرشيف الوطني البرتغالي في لشبونة .

Arquivo Nacional da Torre do Tombo, Lisboa, Parte Moco 75 Doc 104. N.9813

٨- راجع، (تعليقات البوكيرك) .

The Commentaries of The Great Afonso DaLboquerque;

Barros, Da Asia, Dec. iv Liv. 111. Cap xiii, 331-334, Cap. xv.346;

.Danvers, Op. Cit, 1. 39; Sousa, Op. Cit, 1,332-24.

١٢- بوشرب (رسالة من برنالدين دوسوزا إلى ملك البرتغال ..) المرجع السابق ، ١٣٦-١٣٩ .

١٣- المرجع السابق في هامش رقم ٦.

١٤- راجع حول تلك الفترة من تاريخ اليمن ، النهروالي ، مصدر سابق، خاصة

الصفحات ٩٥-١٠٨ ؛ سيد مصطفى سالم ، **الفتح العثماني لليمن**، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٧٨ ، ١٩٤ -٢١٣.

ومن الواضح أن الأخبار التي وصلت للبرتغاليين كانت تخص السفن المزمع .إرسالها لترافق أويس باشا والي اليمن الجديد راجع:

J. R. B. Blakburn, Turkish - Yemenite Poitical Relations, 1538-68, Unpublished. Ph. D. Thesis, University of Tornoto, 1971, P.116-190..

١٥- بوشرب ، **المرجع السابق** ١٣٧ ، ومن الجدير بالذكر أن كاتب الرسالة أخطأ، حينما قال بأن مانعاً انتزع القطيف ، إذ الصحيح أنه قد تم على يد والده راشد .

١٦- **المرجع نفسه** .

١٧- **المرجع نفسه** .

١٨- تتكون مملكة هرموز من عدد من الولايات التي تدعى وزارات وهي على امتداد جزء كبير من الخليج العربي .

١٩- تقسم الامبراطورية البرتغالية في الشرق الى عدد من الوحدات الإدارية يطلق عليها قبطانيات ، حيث تشكل القلاع ركيزتها وترابط فيها قوة عسكرية برتغالية وعدد صغير من السفن ويقوم على رأس إدارتها قبطان، وإلى جانبه يوجد الوكيل التجاري لملك البرتغال الذي يسمى الفيتور Feitor، حيث

يساعده عدد من الكتبة .

يضاف إلى إلى ذلك وجود عدد من الوظائف الهامة في القبطانيه.

Elaine Sanceau, Cartas de D. Joao de Castro,1975.,141. -٢٠

العثمانيون يقضون على حكم آل شبيب

- العثمانيون ينتزعون البصرة من آل شبيب
- العثمانيون يقصون آل شبيب عن القطيف والأحساء
- الحواشي والتعليقات

العثمانيون ينتزعون البصرة من آل شبيب

اقترب الشيخ مانع بن راشد الفضلي حاكم الأحساء، من تحقيق هدف من أهدافه البعيدة فيما يبدو، وذلك حينما أثار انتباه العثمانيين إلى الأهمية الكبيرة للبصرة في الصراع الذي يخوضونه مع البرتغاليين، وما سوف يحيق بهم من مصير، إن هم بقوا متفرجين على ما يجري في منطقة الخليج العربي . لكن مانعاً فارق الحياة دون أن يرى نتيجة ذلك بأم عينيه والثمن الغالي الذي ستدفعه أسرته نفسها "بيت المنتفق" .

والواقع فإن المجابهة بين البرتغاليين والعثمانيين أخذت في التصاعد في مختلف الجهات، بعد أن سعى العثمانيون للضغط عليهم، لكي يشاطروهم منافع تجارة المحيط الهندي، وخاصة في ميدان التوابل، فاحتلال القطيف، ودخولها ضمن دائرة النفوذ البرتغالي قد أدى إلى وقوعها ضمن تلك المجابهة. فقد استثار ذلك القيادة العثمانية ، من دون شك، سواء كانت في بغداد أو أستنبول، لأن ماحدث أخيراً يشكل اقترابا برتغاليا خطيرا من تخوم البصرة البحرية ، وبالتالي قد يشجع الزعامات المحلية ، وبخاصة آل شبيب وآل عليان على التصدي بقوة للضغوط العثمانية التي كانوا يتعرضون لها، مؤملين الحصول على دعم برتغالي في ذلك .

إذاً فالوضع الجديد الذي تولد نتيجة احتلال القطيف ، ربما يخلق صعوبات أمام العثمانيين في تنفيذ خططهم المبيّتة تجاه البصرة ، كما قد يحبط تطلعاتهم نحو الخليج العربي . فما عليهم إذاً سوى امتشاق الحسام والتحرك بسرعة نحو البصرة والإطلال منها على مياه الخليج ، ليكونوا عندها في مواجهة البرتغاليين وحلفائهم .

وهنا نجد السلطان سليمان القانوني، وبعد عقده هدنة في وسط أوروبا مع آل هبسبرك سنة ٩٥٢هـ/١٥٤٥م، أي بعد سقوط القطيف بقليل، يوجه اهتمامه من جديد نحو

البرتغاليين في البحار العربية، ومنها الخليج العربي، فاختار إياس باشا، أحد رجاله الأكفاء، ليكون والياً لبغداد، وأن يقوم بفتح البصرة، ثم الانطلاق منها، حسب قول إياس باشا نفسه، لاحتلال هرموز وطرد البرتغاليين من الخليج.[١] فبادر إياس باشا منذ وصوله إلى بغداد باتخاذ الاستعدادات لتنفيذ ما أوكل إليه، الأمر الذي أثار فزعاً شديداً لدى الزعامات العربية في جنوب العراق، وعلى رأسها الشيخ يحيى بن محمد الفضلي حاكم البصرة، بعد أن أصبح واضحاً لهم ما يحيكه العثمانيون ضدهم في استنبول وبغداد.

وعلى أي حال نهض أياس باشا من بغداد على رأس قوة كبيرة، متوجهاً صوب البصرة وشق طريقه وسط مقاومة عنيفة ودامية في بعض مراحلها من قبل الزعامة الفلاحية العربية، إلى أن نجح أخيراً في دخول البصرة ظافراً، وذلك في شوال سنة ٩٥٣هـ / ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٥٤٦م.[٢]

وبهذا يكون العثمانيون قد أنهوا حكم إمارة عربية دامت أربعة عقود عند رأس الخليج العربي، وهي إمارة آل شبيب، وانتزعوا السلطة من قبيلة المنتفق وحلوا محلها. وبهذا بدء الحكم العثماني المباشر للبصرة، أو مايطلق عليهم أحياناً حكم «الروم»، منذ تلك السنة وليس قبلها، كما يخطىء البعض.

وإذا كان العثمانيون قد لاقوا مقاومة شديدة من زعماء البصرة منذ بداية أمرهم، وأن تستمر تلك المقاومة طوال حكمهم فيها، فإنهم وجدوا في البداية على عكس من ذلك لدى معظم الأوساط الخليجية،[٣] حيث رحبوا بهم بحرارة معلقين عليهم آمالاً عريضة، ولو إلى حين، في أن يزيحوا عن كاهلهم مايلاقونه من عنت وإذلال على يد البرتغاليين . وقد يكون آل شبيب في الأحساء من أوائل هؤلاء ترحيباً وفرحاً بهم، بعدما انتقم لهم العثمانيون من أبناء عمومتهم في البصرة، وما دروا بأن فرحتهم لن تطول، وأنهم سيلاقون المصير نفسه على يد العثمانيين أيضاً.

اتضح للعثمانيين، بعد استقرارهم بالبصرة أن ما كانوا يحلمون به، وهو الحصول على إيرادات كبيرة، من تجارة البصرة، ليس بالأمر السهل واليسير، فقد حال دون ذلك أمران، أولاهما : الانتفاضات الفلاحية والعشائرية الواسعة التي واجهتهم وكان على رأسها عشائر المنتفق، بزعامة شيخها محمد بن عثمان بن محمد بن مغامس الفضلي[٤]، حيث سببت تلك الانتفاضات شللاً في حركة التجارة على الطرق النهرية والبرية . وثانيهما : قيام البرتغاليين بفرض حصار بحري على تجارة البصرة، بل ومحاولة التدخل العسكري فيها لمساعدة الزعامات العربية الثائرة هناك والتي استنجدت بهم[٥] .

العثمانيون يقصون آل شبيب عن القطيف والأحساء

من الطبيعي ان يبحث العثمانيون عن وسائل وطرق تؤدي إلى تعزيز موقفهم الدفاعي، بل وممارسة الضغط على البرتغاليين لرفع حصارهم التجاري على البصرة . لذا فمن المحتمل جداً أنهم وجدوا ذلك في حكام الأحساء من آل شبيب الذين أبدوا استعداداً لدعمهم ومؤازرتهم منذ وصولهم إلى البصرة . ويبدو أن الشيخ عبد الله " عبيد الله " بن مانع الفضلي، والذي خلف والده[٦] في حكم الأحساء، كان قد أجرى حواراً مباشراً مع بلال محمد باشا، أول ولاة العثمانيين بالبصرة (٩٥٣-٩٥٦هـ/١٥٤٧-١٥٤٩م). حول سبل التعاون بينهما، ولايستبعد أن يكون موضوع استرجاع القطيف أحد الموضوعات التي تناولها الطرفان والتقت أهدافهما حول أهمية تحقيقها .

ويتضح من رسالة مانويل دى ليما Dom Manuel de Lima، قبطان هرموز (١٥٤٧-١٥٥١م)، المؤرخة في حزيران ١٥٤٧م (جمادى الثاني ٩٥٤هـ) إلى دي كاسترو، نائب ملك البرتغال في الهند، بأن هذا هو ماتم بينهما فعلاً . فقد حصل دى ليما على معلومات تتعلق بأوضاع العثمانيين بالبصرة من الحاج فياض العقيراوي

أو (العجيراوي)، أحد كبار تجار البصرة.[٧] الذي قال له : بأن محمد باشا قرر الاستيلاء على القطيف وتسليم حكمها لأمير عربي Rey ،[٨] والذي قد يكون المقصود به هو الشيخ عبد الله " عبيد الله " بن مانع بعينه . على أن مانقل على لسان الحاج فياض العقيراوي، يجب أن لايفهم، على أنه أمر قد تم تنفيذه فعلاً، بل لايعدو الأمر سوى كونه خطط ونوايا لم يقدر لها أن ترى النور إلا بعد مضي ثلاث سنوات على ذلك التاريخ، أي في ولاية قباد باشا آل رمضان على البصرة، (٩٥٦-٩٦١هـ/١٥٤٩ - ١٥٥٤م)، الذي هو ثاني ولاتها.

والواقع أن تعيين قباد باشا والياً على البصرة يمكن أن يفسر على أنه اهتمام خاص بها من قبل قادة اسطنبول، ومثله ذلك بمنطقة الخليج . فالوالي الجديد يحمل معه تطلعات العثمانيين وخططهم في الخليج العربي، ومن بينها الاستيلاء على القطيف وبسط نفوذهم على الأحساء. فكان أن بوشر أولاً بتنفيذ خطة للاستيلاء على القطيف، والتي نفذت في أواخر سنة ٩٥٧هـ/١٥٥٠م، حيث تضمنت بأن يتولى الشيخ عبدالله بن مانع أمير الأحساء مهاجمتها ومحاصرتها براً، في حين يقوم العثمانيون بإمداده برماة البنادق وإسناده بقوة بحرية . وقد تكللت تلك الخطة بنجاح غير متوقع، نظراً لقيام وزير القطيف بتسليمها إلى المهاجمين من دون أدنى مقاومة . وقد أعقب ذلك قيام الرئيس مراد، قائد القوة البحرية العثمانية، بتولي مقاليد السلطة في المدينة مباشرة.[٩] إن تصرف الرئيس مراد يعني تجاهلاً للشيخ عبد الله " عبيد الله " بن مانع الفضلي وأحقيته في حكم القطيف، خاصة وأنه بذل جهداً كبيراً ورئيساً من أجل الاستيلاء عليها، إضافة إلى تجاهله للاتفاق المبرم بينه وبين والي البصرة السابق بلال محمد باشا، كما يفهم من أقوال فياض العقيراوي السابقة، والتي تتضمن تسليم القطيف اليه.

إن استحواذ الرئيس مراد على السلطة في القطيف بهذه الصورة، والذي اعتمد، فيما يبدو، على دعم قبلي (الجبور وبني خالد)، قد ولد استياءً شديداً لدى الشيخ عبد الله بن مانع الفضلي، خاصة بعد أن أدرك أن تصرف مراد هذا ماهو إلا أمر " قد بيت بليل "، وأن

الآمال العريضة التي كان قد علقها على العثمانيين لمساعدته في استرجاع ملكة في القطيف، ماهي سوى أضغاث أحلام، فكان طبيعيا أن ينسحب إلى الأحساء بقواته ويقطع صلاته بهم .

ومهما يكن من أمر، فهذا التوسع العثماني جعلهم يقتربون من معقل البرتغاليين الرئيس في هرموز، ويجاورون جزيرة البحرين الغنية باللؤلؤ، والتي سوف تكون هدفهم القادم.[١٠]

ومن الطبيعي أن يثير ماحدث فزع كل من البرتغاليين والهرموزيين على حد سواء، وأن يحفزهم للتصدي له . لذا فإنهم سرعان ماقاموا بحملة عسكرية مشتركة في أواخر صيف ٩٥٨هـ / ١٥٥١م . نجحت في انتزاع القطيف من أيدي العثمانيين، الذين اضطروا للانسحاب منها متروكةً تواجه مصيرها لوحدها . لكن الغزاة ادركوا سريعاً صعوبة الاحتفاظ بها بعد أن رأوا بوادر المقاومة العربية بارزة للعيان . ولعل قيام شيخ قبيلة بني جبر، الذي تصفه المصادر البرتغالية بأنه كان مشهور بشجاعته، بحشد أتباعه استعداداً للقيام بهجوم معاكس،[١١] هو إنذار بما سيواجههم مستقبلاً من متاعب وصعوبات، ليس في القطيف فحسب، بل في مناطق أخرى من الخليج، حيث لمسوا أن مشاعر سكانها متوجهة نحو العثمانيين ومعادية لهم.

وقد عبر الفونسو دي البوكيرك De Afonso de Albuquerque، أحد كبار موظفي حكومة الهند، في رسالته المؤرخة في شهر كانون الثاني (يناير) ١٥٥٢م، عن مناخ الكراهية الشديدة السائدة في الخليج تجاه الوجود البرتغالي، بقوله "... إن الطغيان الذي مارسه قباطنة هرموز ضد ملوك البلدان المطلة على الخليج، وكذلك ضد زعماء المسلمين فيه، قد جعلهم يرغبون في تسليم بلدانهم للترك، مثلما سلموا القطيف إليهم، وأنهم ينوون الآن تسليم البحرين اليهم أيضاً ".[١٢]

انتهى هؤلاء الغزاة أخيراً إلى قرار بالانسحاب السريع من القطيف، مكتفين بنسف أجزاء من أسوارها وأقسام هامة من قلعتها،[١٣] وهي تعود لأيدي العرب، والذين قاموا

بدورهم بتسليمها للعثمانيين، مقدمين لهم الدعم وللمرة الثانية في الاستيلاء على القطيف.

وعلى أي حال، تنبه العثمانيون، بعد المهانة العسكرية التي لحقت بهم في القطيف إلى ضرورة إعطاء مزيد من الاهتمام للخليج العربي وتدعيم مركزهم فيه . لذا فإنهم قاموا بتحويل القطيف الى وحدة إدارية هي اللواء (السنجق)، وأن تكون تابعة لولاية البصرة، وتعيين محمد بك، أخو إياس باشا، والي بغداد وفاتح البصرة، لكي يكون أميراً على اللواء المذكور.(١٤)

وفي الوقت نفسه تم الإيعاز إلى الرئيس بيري بك، قبطان الاسطول العثماني بمصر، بالإبحار بأسطوله من السويس لضرب المواقع البرتغالية في الخليج العربي والاستيلاء على البحرين، إن أمكن ذلك،(١٥) رداً على ماقاموا به نحو القطيف، ولإظهار القدرة العسكرية العثمانية على مجابهة التحدي بمثله، إضافة إلى استعادة الهيبة العثمانية المثلومة في المنطقة.

وعلى أي حال، فمن الواضح أن المهمة الموكلة إلى محمد بك، لم تكن تهدف إلى تعزيز النفوذ العثماني في القطيف فحسب، بل إنها تتجاوز ذلك إلى العمل على مد نفوذهم إلى كافة أنحاء المنطقة، وضم الأحساء نفسها للدولة العثمانية.(١٦) لذا فإن محمد بك «باشا» باشر منذ وصوله إلى هناك باتخاذ كافة التدابير والاستعدادات العسكرية لإنجاز تلك المهمة، حتى تهيأ له الظرف المناسب، بعد مرور حوالي عام تقريباً، فقاد حملة عسكرية نجحت في احتلال الأحساء في أواخر سنة ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م، على أرجح تقدير.(١٧)

ومن الجدير بالذكر، أنه لايوجد حتى الآن أي معلومات بخصوص الحملة العثمانية التي فتحت الأحساء أو تاريخها والأحداث التي رافقتها،(١٨) إضافة إلى موقف حاكمها الشيخ عبد الله " عبيد الله " بن مانع بن راشد الفضلي، وكيف انتهى به المصير، لكن من المرجح أنه اتجه إلى اليمامة حيث ممتلكاتهم في معكال .

وعلى أي حال، فإن صفحات من تاريخ الأحساء والقطيف قد طويت بزوال إمارة عربية فيها وحلول الأتراك العثمانيين محلهم، وليصبح محمد باشا أول ولاتها، حيث استمر في حكمها إلى أن توفي في الأحساء في أواخر سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٦م.(١٩)

ومما يجدر ذكره أن سلطة العثمانيين في الخليج العربي بقيت مقتصرة على الأحساء والقطيف، إضافة إلى البصرة، ولم يقوموا بمحاولة تذكر لمد نفوذهم إلى أبعد من ذلك، أو لتحجيم الوجود البرتغالي فيه، باستثناء محاولتين فاشلتين، الأولى كانت في سنة ١٥٥٢م(٢٠) وهدفها الاستيلاء على هرمز، والثانية كان هدفها احتلال البحرين سنة ٩٦٦هـ/١٥٥٩م.(٢١) وكأن القوتين العثمانية والبرتغالية قد اعتزمتا على إقامة سلام هش بينهما، حيث يتقاسما فيه النفوذ ويراعي كل منهما مصالح الطرف الآخر إلى حد ما مع التيقظ لما يحيكه كل منهما للآخر خفية.

- الحواشي والتعليقات

١- راجع رسالة إياس باشا في الأرشيف الوطني البرتغالي في لشبونة .

Arquivo Nacional de Torre da Tombo, Lisboa, Colecao Sao Lourenco, vol. iv, fol 140 v-141r.

٢- راجع ، كلشن خلفا ، ٢٠١ - ٢٠٢؛ كذلك أنظر، عبد اللطيف الحميدان، ولايتي بغداد والبصرة .. :

A. N. AL-Humaidan. OP. Cit, PP. 10-13.

٣- تردد في المصادر العثمانية بأن السلطان سليمان القانوني تلقى عددا من رسائل الترحيب والخضوع والولاء من عدد من زعماء شمال الخليج، إلا أن تلك المصادر لم تحدد تواريخها أو فترة استلامها واسماء مرسليها . إلاّ أنه من الواضح أن تلك الرسائل كانت قد وصلت في فترات مختلفة ، وأن أعدادها قد بولغ فيه .

٤- Do Couto, D. Asia, Dacada vi. liv. Cap. v p204.

٥- Ibid, Decade VI. Liv. xc Cap. xv. p. 333-38.

٦-

Salih Ozbaran, The Ottoman Turks in the Persian Gulf, P.1534-1581. In Journal of Asian History. (Wisbaden, 1972) Vol. 6/1 P.45-87 esp.P.54-56.

أما الترجمة العربية لهذا البحث والتي نشرت تحت عنوان "الأتراك والبرتغاليون" فإنها لم توفق في إعطاء المعنى الدقيق والمناسب للعديد من فقراته .

٧- العقيراويون أو العجيراويون حسب لهجة تميم التي تقلب القاف الى جيم ، واحدهم عقيراوي او عجيراوي، ينتسبون ، كما هو واضح من لقبهم، إلى ميناء العقير المطل على الخليج العربي حيث نزحوا منه إلى البصرة . ومن المحتمل أن نزوحهم كان أثناء حكم الجبور لبلاد البحرين . وكان لهم نشاط تجاري في الخليج، بحيث برز منهم رجال ذوي ثراء عريض وعلاقات ممتدة ، خلال القرن العاشر / السادس عشر ، مثل فياض العقيراوي وموسى العقيراوي وجابر العقيراوي ، وربما تصاهروا مع أسرة ثرية أخرى في الخليج هي أسرة آل رحال . وقد نسبهم الجزيري ، المصدر السابق ، ١١٢٣/٢ إلى آل عقير من دون أن يوضح مقصده من ذلك . في حين أن القاضي نور الله شوشتري ، المهتم بترجمة البارزين من طوائف الشيعة ، تحدث عنهم لكنه سكت عن نسبهم، راجع مؤلفه بالفارسية ، مجالس المؤمنين (تهران ، جابخانه إسلامية) الطبعة الثالثة ١٩٧٥م، ١٤٣/١ وكذلك راجع اوزيران ، الاتراك العثمانيون والبرتغاليون ، ٦٤-٧٠.

٨- Salih 'O'zbaran, "Two letters of Dom Alvaro do Noroha from Hormus," In Tarih Enstitusi Dergisi (Istanbul), Sayi: 1x, (1978), P 257-60; Do Couto, Op. Cit, Decada, vi. Liv. 1x-Cap: iv, 243-44.

٩- Ozbaran, Ibid, 260-61; do Couto, Ibid, Cap. xiv, P. 330-32.

١٠- Do Couto, Ibid, Decada, VI. Liv. 1x. Cap. xiv. P. 325-32.

١١- Ibid .

١٢- As Gavetas da Torre do Tombo, Lisboa, 1965, vol. v. P.325-29.

١٣- اوزبران ، **الاتراك العثمانيون والبرتغاليون** ، ٤٣-٤٧ .

١٤- راجع، سيد لقمان العاشوري ، **مجمل الطومار** ، مخطوطة المتحف البريطاني.

AL-Ashuri, Lugman, Mucmal Utumar. Turkish MS. Or. 1135 fol. 80a

١٥- G. Orhunlu, Hint kaptanligi ve Piri Reis, in Belleten, 134 (1970), s. 235-54..

١٦- لم نعثر على مصدر يتحدث عن فتح الأحساء أو يشير إلى ذلك سوى سيد لقمان في كتابه السابق. وكذلك كتابه الآخر **زبدة التواريخ** ، مخطوطة (مكتبة Turk ve Islam Eserleri Muzesi Ktb. nu, 1973.. متحف الآثار التركية والاسلامية) .

١٧- راجع سيد لقمان العاشوري ، **المصدر السابق** ؛ كذلك ، **حكمنامة مجموعه‌سي** ، رقم ٨٨٨ ورقة ١٠٣، ١١٣ طوبقبو سراي ، مكتبة قوشلر .

١٨- راجع، Jon E. Mandaville. The Ottoman Province of al-Hasa, in Journal of The American Oriental Society (1970), 90/3. P. 486-513..

١٩- انظر حول بداية ولاية محمد باشا ونهايتها في اورهنلو ، (تقرير حول الحملة

العثمانية على البحرين سنة ١٥٥٩) ، **المرجع السابق** ، كذلك راجع ، **تحفة المستفيد** ، ١٢١-١٢٢ .

٢٠- جنكيز اوهورنللو ، المرجع السابق .

S. Ozbaran, "Bahrian in 1559" In, Osmanli Arastirmalari, (1982), 111 P. 91-104.

خاتمة

إن الغموض الذي يكتنف الحقبة الزمنية من تاريخ شرق الجزيرة العربية - الأحساء والقطيف - والممتدة مابين نهاية حكم الجبور وبداية حكم العثمانيين قد أنتج تصوراً خاطئاً لدى البعض، مفاده هو أن الحكم العثماني قد قام مباشرة على أنقاض حكم الجبور. فجاءت هذه الدراسة لا لتثبت خطل ذلك التصور فحسب، بل ولتكشف عن فترة غامضة ومطوية من تاريخ المنطقة، وذلك من خلال إبراز أحداثها ووقائعها وصولاً إلى إحلالها المكان المناسب ضمن صفحات تاريخ تلك الرقعة ، مثلما سبق لنا أن قمنا به، قبل عقد من الزمن، تجاه الفترات السابقة لها.

كان واضحاً منذ البداية، أن إمارة عربية كانت قائمة في البصرة قد تهيأ لها إزاحة الجبور من الأحساء، فكان أن تمّ إلقاء الضوء على تلك القوة التي ارتكزت عليها وهي قبيلة المنتفق وعلى البيت الذي تزعمها وهو بيت آل فضل، أو بيت آل شبيب، والنسبة الأخيرة لاسم شبيب هي الأكثر شهرة وشيوعا، مما دعانا لاستخدامها في دراستنا.

ولقد أوضحنا أن العصر الذي ظهرت فيه إمارة آل شبيب لم يخلُ من تهديدات قوى خارجية كبرى، كالصفويين والعثمانيين والبرتغاليين، مما أوجب على قادة تلك الإمارة ممارسة سياسة تتسم بالحذر الشديد والمرونة تجاه تلك الأطراف. حيث كانت تسعى جميعها للاستفادة قدر الإمكان من موقع الخليج كممر مائي هام للتبادل التجاري مع المحيط الهندي، والبصرة ذات مركز متميز فيه كثيراً .

على أن حلول سلطة إمارة آل شبيب في شرق جزيرة العرب يعني أن نفوذها في شمالي الخليج العربي قد ازداد قوة واتسع ليمتد أيضاً إلى داخل شبه جزيرة العرب نفسها، الأمر الذي أثار مخاوفاً لدى قوى عديدة وكان من بينها قادة هرموز من الفرس الفاليين وامتدادهم في جزيرة البحرين، مثلما أثار البرتغاليين في الخليج الذين استقروا في هرموز وفرضوا

حمايتهم عليها، فكان أن دعاهم ذلك الى التعاون معا والتنسيق فيما بينهما ضد إمارة آل شبيب، مثلما تعاونوا قبلها ضد إمارة الجبور. فتولد عن ذلك صراعات بين الطرفين لتتحول احيانا إلى صدامات دامية، فهذه الصراعات انعكست آثارها السلبية على الأوضاع السياسية والاقتصادية في تلك الإمارة. وقد تم استعراض كل هذه بإضاءة تلك النصوص التي تمت لملمتها بصعوبة بالغة .

بقي أن نشير إلى أن القوى القبلية في شرق الجزيرة العربية قد أخذت هي أيضا قسطا لا بأس به من الاهتمام، فألقي الضوء عليها وعلى نشاطها كآل جبر وآل مُسلّم وبني خالد. وفيما يتعلق بالقبيلة الأخيرة فقد تم، ولأول مرة، الكشف عن نشاطها في المنطقة كقوة وأعطى الدليل الواضح على وجودها فيها قبل مجيء العثمانيين بما يقارب النصف قرن، وبذلك خُطأ الرأي الذي أشاعه البعض بأن بني خالد قد جاؤوا من الشام إلى المنطقة برفقة الجيوش العثمانية الغازية .

هذا وقد كشفت الدراسة عن الصعوبات التي واجهت محاولات الشيخ مانع بن راشد حاكم الأحساء لتوحيد تلك الرقعة الجغرافية الواسعة تحت سلطة سياسية واحدة، لتقاطعها مع مصالح قوى عديدة كان من أبرزها زعماء اسرة آل شبيب أنفسهم ، فاستنفذ ذلك طاقتهم وزعزع كيانهم ، وليكون ذلك النزاع سمة بارزة لعلاقاتهم المستقبلية.

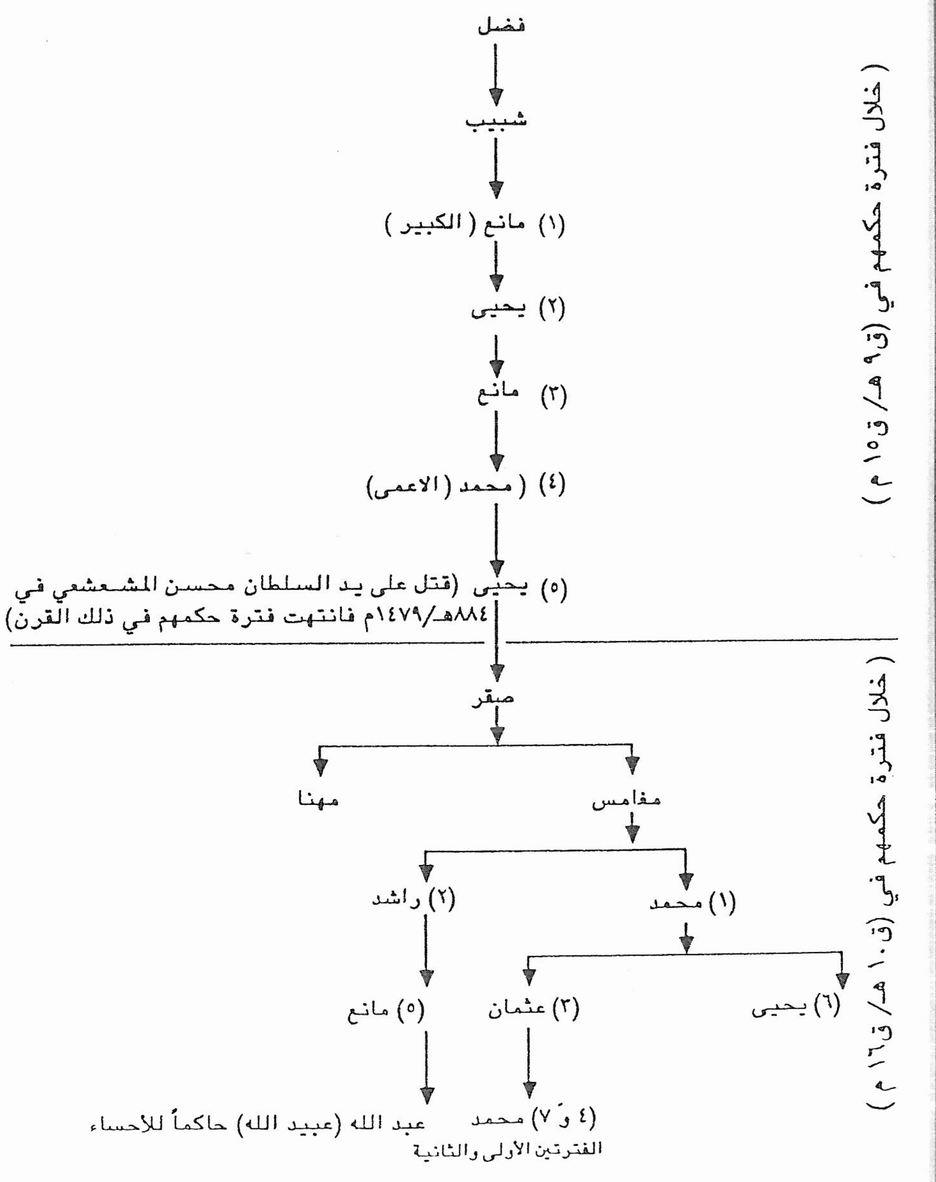
ولقد انتهينا أخيرا إلى أن اتساع التنافس والصراعات بين الدولتين الكبيرتين، العثمانية والبرتغالية، وامتداده إلى المنطقة قد عصف بإمارة آل شبيب، حيث عجزت عن مواجهته ، فكان الحكم العثماني بديلا عنها.

على أن الأحداث السياسية قد أخذت القسم الرئيس من البحث، في حين أهملت الجوانب الاقتصادية والاجتماعية تقريباً،وذلك لصعوبة تفهّم القارئ للجوانب الأخيرة من دون الإلمام مسبقاً بالأرضية التاريخية لتلك الجوانب، والتي نعتزم ، إن شاء الله ، مستقبلاً معالجتها.

وأخيراً كلي أمل بأن تكون هذه الدراسة المتواضعة قد أوفت ببعض ما يؤمّل منها، وأن تكون نتائجها متساوقةً مع الجهد المبذول فيها، وبأن تمهّد الطريق للباحثين في الحقبة العثمانية بحيث تكون متكأً لهم في دراستها .

شجرة آل شبيب

سلالة أمراء آل شبيب (شيوخ المنتفق) في ق٩ وَ ق١٠ هـ/ ق١٥ وَ ق١٦م



أمراء آل شبيب وفترة حكمهم في البصرة والأحساء والقطيف

١-	محمد بن مغامس بن صقر	حكم البصرة (قرابة عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م حتى وفاته عام ٩٣٤هـ/ ١٥٢٨م)
٢-	راشد بن مغامس بن صقر	أ- حكم الأحساء ابتداء من ٩٣١هـ / ١٥٢٥م ب- حكم البصرة والأحساء ابتداء من ٩٣٤هـ/١٥٢٨م جـ- حكم البصرة والأحساء والقطيف ابتداء من ٩٤٤هـ / ١٥٣٧م حتى وفاته عام ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م
٣-	عثمان بن محمد بن مغامس	حكم البصرة من عام ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م حتى وفاته عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م
٤-	محمد بن عثمان بن محمد مغامس (الفترة أولى)	دام حكمه فيها بضعة شهور خلال سنة ٩٤٨هـ / ١٥٤١م
٥-	مانع بن راشد بن مغامس	أ- حكم الأحساء نائباً عن والده ابتداء من ٩٣٤هـ/١٥٢٨م ب- حكم الأحساء والقطيف ابتداء من ٩٤٤هـ/١٥٣٧م جـ- حكم البصرة والأحساء والقطيف في سنة ٩٤٨-٩٤٩هـ ١٥٤٢م د- حكم الأحساء والقطيف ٩٤٩هـ /١٥٤٢م حتى وفاته عام ٩٥١هـ/١٥٤٤م
٦-	يحيى بن محمد بن مغامس	حكم البصرة من ٩٤٩هـ/١٥٤٢م حتى استيلاء العثمانيين عليها سنة ٩٥٣هـ/١٥٤٦م
٧-	عبد الله (عبيد) بن مانع بن راشد	حكم الأحساء من ٩٥١هـ/١٥٤٤م حتى استيلاء العثمانيين عليها سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٣م
٨-	محمد بن عثمان بن محمد مغامس (الفترة الثانية)	تولى حكم أطراف ولاية البصرة وليقود المقاومة ضد العثمانيين

حكام آل شبيب في الأحساء والقطيف

١-	راشد بن مغامس بن صقر	أ- حكم الأحساء ابتداء من ٩٣١هـ/١٥٢٥م ب- حكم البصرة والأحساء ابتداء من عام ٩٣٤هـ/١٥٢٨م إلى عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م جـ- حكم البصرة الأحساء والقطيف ابتداء من ٩٤٤هـ / ١٥٣٨م حتى وفاته ٩٤٦هـ/١٥٣٩م
٢-	مانع بن راشد بن مغامس	أ- حكم الأحساء والقطيف ابتداء من ٩٤٦هـ / ١٥٣٩م ب- حكم الأحساء والقطيف والبصرة في سنة ٩٤٨-٩٤٩هـ/١٥٤٢م جـ- حكم الأحساء والقطيف حتى وفاته سنة ٩٥١هـ / ١٥٤٤م
٣-	عبد الله (عبيد) بن مانع بن راشد	حكم الأحساء من ٩٥١هـ/١٥٤٤م حتى استيلاء العثمانيين عليها سنة ٩٦٠هـ/١٥٥٣م